٤٠ مجلساً فى صحبة الحبيب

صلى الله عليه و سلم

د . عادل بن علي الشدي

تصميم واخراج موقع نصره رسول الله
www.rasoulallah.net

www.rasoulallah.net

٤٠ مجلساً في صحبة الحبيب

صلى الله عليه و سلم

د . عادل بن علي الشدي

تصميم واخراج موقع نصره رسول الله

المحتويات

مِنْ حُقُوقِ المصْطَفَى صلى الله عليه و سلم (١) ٥
أَوَّلاً: الإيمَانُ بِهِ صلى الله عليه وسلم : ٥
ثَانِيًا: اتِّبَاعُهُ صلى الله عليه و سلم : ٦
ثَالِثًا: مَحَبَّتُهُ صلى الله عليه و سلم: ٧
رَابِعًا: الانْتِصَارُ لَهُ صلى الله عليه و سلم: ٧
مِنْ حُقُوقِ المصْطَفَى صلى الله عليه و سلم (٢) ٨
خَامسًا: نَشْرُ دَعْوَتِهِ صلى الله عليه و سلم: ٨
سَادِسًا: تَوْقِيرُه صلى الله عليه و سلم حَيًّا وَمَيِّتًا: ٨
سَابعًا: الصَّلاَةُ عَلَيْهِ صلى الله عليه و سلم كُلَّمَا ذُكِرَ: ٩
هَدْيُ النبيِّ صلى الله عليه و سلم فِي رَمضانَ (١) ١١
الإكْثارُ مِنْ أَنْواع العِبَادَةِ: ١١
هَدْيُهُ صلى الله عليه و سلم فِي ثُبُوتِ الشَّهْرِ: ١٢
هَديُهُ فِي الخُرُوجِ مِنَ الشَّهْرِ: ١٣
هَدْيُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم فِي رَمضَانَ(٢) ١٤
آدَابُ الصَّـــائِم ١٥
هَدْيُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم فِي رَمضَانَ (٣) ١٧
هَدْيُهُ صلى الله عليه و سلم فِيمَنْ أَكَل أَوْ شَرِبَ نَاسِيًا ١٧
مُفْطِرَاتُ الصَّائِم ١٧
هَدْيُه صلى الله عليه و سلم فِي الاِعْتِكَافِ ١٨
النَّسَبِ الشَّرِيفِ وَطَهَارَةِ أَصْلِهِ صلى الله عليه و سلم ٢٠
نَسَبُهُ صلى الله عليه و سلم: ٢٠
أَسْمَاؤُه صلى الله عليه و سلم: ٢٠
طَهَارَةُ أَصْلِهِ صلى الله عليه و سلم: ٢٠
صِـدْقُــه صلى الله عليه و سلم وَأَمَانَـتُه ٢٢
فِي الميثَاقِ وَبُشْرَى الأَنْبِيَاءِ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و سلم ٢٤

المحتويات

نَبِيُّ الرَّحْمَةِ (١) ٢٦
رَحْمَتُه صلى الله عليه و سلم بِأَعْدَائِهِ: ٢٦
نَبِيُّ الرَّحْمَةِ (٢) ٢٨
رَحْمَتُهُ صلى الله عليه و سلم بِالْحَيَوَانِ وَالْجَمَادِ: ٢٨
مِنْ فَضَائِلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم ٣٠
وِلاَدَتُهُ, رَضَاعُه، صِيَانَةُ اللهِ لَهُ ٣٢
وَفَاةُ وَالِدِهِ: ٣٢
رَضَاعُهُ صلى الله عليه و سلم: ٣٢
وَفَاةُ أُمِّه صلى الله عليه و سلم: ٣٣
صِيَانَةُ اللهِ تَعَالَى لَهُ مِنْ دَنَسِ الجَاهِلِيَّةِ: ٣٣
زَوَاجُـــهُ صلى الله عليه و سلم ٣٤
زَوْجَاتُهُ صلى الله عليه و سلم: ٣٥
النَّبِيُّ والمرْأَةُ (١) ٣٦
النَّبِيُّ والمرْأَةُ (٢) ٣٨
مَبْعَثُه وَدَعْوَتُه قَوْمَهُ ٤٠
صَبْرُه عَلَى الأَذَى ٤٢
فِي حِفْظِ اللهِ نَبِيَّهُ صلى الله عليه و سلم ٤٤
مَحَبَّةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم ٤٧
أَعْظَمُ عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ ٤٩
قَال ابْنُ الجوزِيِّ: وَهُو مُعجزٌ مِنْ أَوْجُه: ٤٩
عِبَادَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم ٥١
بَدْءُ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ ٥٣
الهِجْرَةُ إِلَى المدِينَةِ ٥٥

المحتويات

مَعِيشَةُ النبيِّ صلى الله عليه و سلم..... ٥٨
أُسُس بِنَاءِ الدَّوْلَةِ ٦٠
شَجَاعةُ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم..... ٦٣
غَزْوةُ بَدْرٍ الكُبْرَى ٦٦
غَـزْوَةُ أُحُـد ٦٨
الدُّروسُ المسْتَفادَةُ مِن وَقْعَةِ أُحُدٍ ٧٠
رِفْقُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه(١) ٧٢
رِفْقُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه(١) ٧٥
رِفْقُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه (٢) ٧٨
غَزْوةُ الأحْزَابِ ٨١
عَدْل النبيِّ صلى الله عليه و سلم..... ٨٣
مَكَائِدُ اليَهودِ وَمواقِفُ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم منْهُمْ..... ٨٥

مِنْ حُقُوقِ المصْطَفى صلى الله عليه و سلم (١)

لَقَدْ أَكْرَمَنا الله تبارَك وَتَعالى بِبَعْثِهِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِبُزُوغ شَمْس رِسَالَتِه قَالَ تَعالى:»لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ «.[آل عمران: ٤٦١].

وَإِنَّ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمعَلَينَا حُقوقًا كَثِيرَةً، يَنْبَغِي عَلَينَا أَدَاؤُهَا وَالحِفَاظُ عَلَيْهَا، وَالحذَرُ مِنْ تَضْيِيعِهَا أَو التَّهَاوُنِ بِهَا. وَمِنْ هَذِهِ الحُقُوقِ:

أَوّلاً: الإِيمَانُ بِهِ صلى الله عليه وسلم :

إِنَّ أَوَّلَ حَقٍّ مِنْ حُقُوقِ النَّبِيِّصلى الله عليه وسلم هُوَ الْإِيمَانُ بِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِرِسَالَتِهِ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلموَأَنَّه خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالمرْسَلِينَ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ آمَنَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِياءِ الَّذينَ جَاؤُوا قَبْلَهُ.

وَالْقُرْآنُ مَلِيءٌ بِالآيَاتِ الَّتِي تَأْمُرُ بِالإِيمَانِ بِرَسُولِ اللهِ وَعَدَمِ الشَّكِّ فِي رِسَالَتِه, فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى:

«فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[التغابن: ٨].

وَقَالَ:

"إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ" [الحجرات: ٥١].

وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الْكُفْرَ بِاللهِ وَرَسُولِه صلى الله عليه و سلم مِنْ أَسْبَابِ الهَلَاكِ والعِقَابِ الْأَلِيمِ فَقَالَ تَعَالَى: ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ [الأنفال: ٣١].

وَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ, ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِه إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[رَوَاهُ مُسْلِمُ].

ثَانِيًا: اتِّبَاعُهُ صلى الله عليه و سلم :

وَاتِّبَاعُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم هُوَ الْبُرْهَانُ الْحَقِيقِيُّ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ، فَمَنِ ادَّعَى الْإِيمَانَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم، ثُمَّ هُوَ لَا يَمْتَثِلُ لَه أَمْرًا، وَلَا يَنْتَهِي عَنْ مُحَرَّمٍ نَهى النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم عَنْه، وَلَا يَتْبعُ سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ صلى الله عليه و سلم فَهُوَ كَاذِبٌ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْإِيمانَ هُوَ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْه الْأَعْمَالُ.

وَقَدْ بيَّن اللهُ تعالَى أَنَّ رَحمَتَهُ لَا تَنَالُ إلا أَهْلَ الاتِّبَاعِ وَالانْقِيَادِ فَقَالَ تَعَالَى: وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧)[الأعراف: ١٥٦, ١٥٧].

وَكذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى تَوَعَّدَ المعْرِضِينَ عَنْ هَدْيِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم الْمُخَالِفِينَ أَمْرَهُ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فَقَالَ: لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النور: ٦٣] .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالتَّسْلِيمِ لِحُكْمِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ لِحُكْمِهِ فَقَالَ: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا [النساء: ٦٥].

ثَالِثًا: مَحَبّتُهُ صلى الله عليه و سلم:

وَمِنْ حُقُوقِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم عَلَى أُمَّتِه: مَحَبَّتُه كُلَّ الحُبّ وَأَكْمَلَهُ وَأَعْظَمَهُ، فَقَدْ قَالَ صلى الله عليه و سلم: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[متفق عليه].

فَأَيُّ إِنْسَانٍ لَا يُحبُّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَإِنْ تَسَمَّى بِأَسْمَاءِ المسْلِمِينَ وَعَاشَ بَيْنَ ظَهرَانِيهِمْ.

وَأَعْظَمُ الْحُبِّ أَنْ يُحِبَّ المؤْمِنُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم أَعْظَمَ مِنْ مَحبَّتِهِ لِنَفْسِهِ، فَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم: يَا رَسُولَ اللهِ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». فَقَالَ عُمَرُ: فَإِنَّه الْآنَ –وَاللهِ– لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم: «الْآنَ يَا عُمَرُ»[رواه البخاري].

رَابِعًا: الانْتِصَارُ لَهُ صلى الله عليه و سلم:

وَهُوَ مِنْ آكَدِ حُقُوقِهِ صلى الله عليه و سلم حَيًّا وَمَيِّتًا, فَأَمَّا فِي حَيَاتِه فَقَدْ قَامَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم بِهَذِهِ المهِمَّةِ خَيرَ قِيامٍ.

وَأَمَّا بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم فَالذَّبُّ يَكُونُ عَنْ سُنَّتِه إِذَا تَعَرَّضَتْ لِطعنِ الطَّاعِنِينَ وَتحرِيفِ الجَاهِلِينَ وَانْتِحَالِ المبْطِلِينَ.

وَيَكُونُ الذَّبُّ كَذلِكَ عَنْ شَخْصِهِ الْكَرِيمِ إِذَا تَنَاوَلَهُ أَحَدٌ بِسُوءٍ أَوْ سُخْرِيَةٍ, أَوْ وَصَفَهُ بِأَوْصَافٍ لَا تَلِيقُ بِمَقَامِهِ الْكَرِيمِ صلى الله عليه و سلم.

وَقَدْ كَثُرَتْ –فِي هَذَا الْعَصْرِ– حَمَلَاتُ التَّشْوِيهِ الَّتِي يَطْعنُونَ بِهَا عَلَى نَبِيِّ الإِسْلامِ صلى الله عليه و سلم، وَعَلَى الأُمَّةِ كُلِّهَا أَنْ تَهُبَّ للدِّفَاعِ عَنْ نَبِيِّها صلى الله عليه و سلم بِكُلِّ مَا تَملِكُ مِنْ وَسَائِلِ قُوَّةٍ وَأَدوَاتِ ضَغْطٍ، حَتَّى يَكُفَّ هَؤُلَاءِ عَنْ كَذِبِهِمْ وَبُهْتَانِهِمْ وافْتِرَائِهِمْ..

مِنْ حُقُوقِ المصْطَفى صلى الله عليه و سلم (٢)

لَا زَالَ الْحَدِيثُ مَوْصُولاً عَنْ حُقُوقِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم عَلَى أُمَّتِهِ:

خَامِسًا: نَشْرُ دَعْوَتِهِ صلى الله عليه و سلم:

إِنَّ مِنَ الوَفَاءِ لِرسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم أَنْ نَقُومَ بِنَشْرِ الْإِسْلَامِ وَتَبْلِيغِ الدَّعْوةِ فِي كَافَّةِ أَصْقَاعِ الْأَرْضِ، فَقَدْ قَالَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[رواه البخاريُّ] وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[متفق عليه].

وَأَخْبَرصلى الله عليه و سلم أَنَّه:»مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ»[رواه أحمد وأصحاب السنن].

وَمِنْ أَسْبَابِ كَثْرَةِ الْأُمَّةِ: قِيَامُهَا بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَدُخولُ النَّاسِ في الْإِسْلَامِ، وَقَدْ بيَّن اللهُ تَعَالَى أَنَّ الدَّعْوةَ إِلَيْهِ هِيَ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، فَقَالَ: قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ [يوسف: ٨٠١].

فَعَلى الْأُمَّةِ أَنْ تَتَمَسَّكَ بِوَظِيفَتِها الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ لِأَجْلِها، وَهِيَ الدَّعْوَةُ وَالْبَلاغُ وَالأمرُ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهيُ عَنِ المنْكَرِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ [آل عمران: ٠١١].

سَادِسًا: تَوْقِيرُه صلى الله عليه و سلم حَيًّا وَمَيِّتًا:

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ حُقُوقِهِ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ الَّتِي فَرَّطَ فِيها كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، قَالَ تعالى: â إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨)لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [الفتح: ٨ –٩].

قَالَ ابْنُ سِعْدِي: «أَيْ تُعَزِّرُوا الرَّسُولَ وَتُوَقِّرُوه، أيْ تُعَظِّمُوه، وَتُجِلُّوه، وَتقومُوا بِحُقُوقِه، كَما كَانتْ لَه المنَّةُ الْعَظِيمةُ فِي رِقَابِكُمْ».

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم يُعَظِّمُونه وَيُوقِّرُونَهُ وَيُجِلُّونَه إِجْلَالاً عَظِيمًا، فَقَدْ كَانَ إِذَا تَكلَّم أَطْرَقُوا لَهُ حَتَّى كَأَنَّما عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ. وَلَما نَزَلَ قَوْلُهُ تَعالى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ [الحجرات: ٢].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللهُ عَنْه: وَاللهِ لَا أُكَلِّمُكَ بَعْدَها إِلَّا كَأَخِي السِّرَار.

وَأَمَّا تَوقِيرُه صلى الله عليه و سلم بَعدَ وَفَاتِه، فَيكُونُ بِاتِّباعِ سُنَّتِه، وتعظِيمِ أمْرِه، وَقبُولِ حُكْمِه، وَالتَّأدُّبِ مَع كَلَامِه، وَعَدمِ مُخَالَفَةِ حَدِيثِهِ لِرَأْيٍ أَوْ مَذْهَبٍ. قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمهُ اللهُ: أَجْمَعَ المسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم لَمْ يَحِلّ لَه أَنْ يَدَعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ.

سَابِعًا: الصّلاةُ عَلَيْهِ صلى الله عليه و سلم كُلّمَا ذُكِرَ:

فَقَدْ أَمَرَ اللهُ المؤْمِنِينَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ فَقَالَ: إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا [الأحزاب: ٥٦].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَه فَلَمْ يُصَلّ عَلَيَّ»[رواه مسلم].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ، أَكْثَرُهُمْ عَلِيَّ صَلَاةً»[رواه الترمذي, وحسنه الألباني].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَه وَلَمْ يُصَلّ عَلَيَّ»[رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني].

فَمِنَ الجَفَاءِ أَنْ يَسْمَع المسْلِمُ ذِكْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم ثُمَّ يَبْخَلُ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ كَثِيرًا مِنْ فَوَائِدِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم فِي كِتَابِهِ «جَلَاءُ الْأَفْهَامِ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى خَيْرِ الْأَنَامِ»فَلْيُرَاجَعْ.

ثَامنًا: مُوَالاَةُ أَوْلِيَائِه وبُغْضُ أَعْدَائِه صلى الله عليه و سلم:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[المجادلة: ٢٢].

وَمِنْ مُوالاَتِه:مُوالاَةُ أَصْحَابِه وَمحبَّتُهم, وَبَرُّهمْ, وَمَعْرِفةُ حَقِّهمْ, وَالثَّنَاءُ عَلَيْهم, وَالاِقْتِدَاءُ بِهِمْ, وَالاسْتِغْفَارُ لَهمْ، وَالإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُم, وَمُعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُمْ أَوْ سَبَّهُمْ، أَوْ قَدَحَ فَي أَحدٍ مِنْهُمْ. وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ آلِ بَيْتِهِ وَمُوَالاَتُهمْ وَالذَبُّ عَنْهُمْ وَتَرْكُ الغُلُوِّ فِيهمْ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَحَبَّةُ عُلَمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَمُوَالاَتُهُمْ وَتَرْكُ انْتِقَاصِهِمْ وَالْخوضِ فِي أَعْرَاضِهم.

وَمِنْ مُوالاَةِ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم مُعَادَاةُ أَعْدَائِه مِنَ الكُفَّارِ وَالمنَافِقِينَ وَغَيْرِهم مِنْ أَهْلِ البِدَعِ وَالضَّلاَلِ.

قَالَ رَجلٌ مِنْ أَهلِ الْأَهْوَاءِ لأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: أَسْأَلُكَ عَنْ كَلِمَةٍ؟، فَوَلَّى عَنْهُ وَهُوَ يُشِيرُ بِأَصْبُعِهِ: وَلَا نِصْفُ كَلِمَةٍ؛ تَعْظِيمًا لِسُنَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم وَمَعَادَاةً لِأَعْدَائِها.

هَدْيُ النبيّ صلى الله عليه و سلم فِي رَمضانَ (١)

قَال الْإِمامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَكَانَ هَدْيُ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِيه [أَيْ فِي رَمضَانَ] أَكْمَلَ الْـهَدْيِ، وَأَعْظَمَ تَحْصِيلٍ لِلمَقْصُودِ، وَأَسْهَلَهُ عَلَى النُّفُوسِ.

وَكَانَ فَرْضُه في السَّنةِ الثَّانِيةِ مِنَ الهِجْرَةِ، فَتُوفِّيَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَقَدْ صَامَ تِسْعَ رَمَضَانَاتٍ.

وَفُرِض أَوَّلاً عَلى وَجهِ التَّخْيِيرِ بَيْنَه وَبَيْنَ أَنْ يُطعِمَ عَنْ كُلِّ يومٍ مِسْكينًا, ثُمَّ نُقِلَ مِنْ ذَلك التَّخْيِيرِ إِلى تَحتُّمِ الصَّوْمِ.

وَجُعِل الْإِطْعَامُ لِلشَّيخِ الْكَبيرِ وَالـمَرأةِ, إِذَا لَـمْ يُطِيقَا الصِّيامَ، فَإِنَّهُما يُفْطِران, وَيُطْعِمانِ عَن كُلِّ يومٍ مِسْكينًا.

ورُخِّص لِلْمَرِيضِ وَالمسَافِرِ أَنْ يُفْطِرا وَيَقْضِيَا؛ وَلِلْحَامِلِ وَالمرْضِعِ إِذَا خَافَتَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا كَذلك، فَإِنْ خَافَتَا عَلى وَلَدَيْهِما, زَادَتا مَعَ الْقَضَاءِ إِطْعَامَ مِسْكينٍ لِكُلِّ يَوْم، فَإِنَّ فِطْرَهُمَا لَـمْ يَكُنْ لخَوْفِ مَرَضٍ، وَإِنَّما كَانَ مَع الصِّحَّة، فَجُبِر بِإِطْعَام المسْكِينِ, كَفِطْر الصَّحِيح فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ.

الإكْثَارُ مِنْ أَنْواع العِبَادَة:

وَكَان مِنْ هَدْيِه صلى الله عليه و سلم فِي شَهْرِ رَمَضانَ: الْإِكْثَارُ مِنْ أَنْواعِ الْعِبَادَاتِ, فَكان جِبْرِيلُ –عَلَيهِ السَّلامُ –يُدَارِسُهُ الْقُرآنَ فِي رَمضَانَ، وَكَانَ إِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المرْسَلَةِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاس، وَأَجْودَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ؛ يُكْثِر فِيه مِنَ الصَّدَقَةِ والإِحْسَانِ، وَتِلَاوةِ الْقُرْآنِ، وَالصَّلَاةِ، وَالذِّكْرِ وَالاِعْتِكَافِ.

وَكان يَخُصُّ رَمضَانَ مِنَ الْعِبَادَة بِما لَا يَخُصُّ بِهِ غَيْرَهُ مِنَ الشُّهُورِ، حَتَّى إِنَّه كَان لَيُوَاصِلُ فِيه أَحْيَانًا, لِيُوَفِّرَ سَاعَاتِ لَيْلِهِ وَنَهارِهِ عَلَى الْعِبَادَةِ.

وَكان يَنْهى أَصحابَهُ عَنِ الوِصَالِ، فَيقولُونَ لَه: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، فَيَقُولُ: «لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي

أَبِيتُ»وَفي رِوايةٍ: «إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسقِيني»[مُتفقٌ عَليهِ].

وَقَدْ نَهى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم عَنِ الْوِصَالِ رَحمةً للأُمَّةِ، وَأَذِنَ فِيه إِلى السَّحَرِ.

وَفي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه و سلم يَقولُ: «لَا تُواصِلُوا, فأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ، فَلْيُواصِلْ إِلَى السَّحَرِ»فَهَذَا أَعْدَلُ الوِصَالِ وَأَسْهلُهُ عَلَى الصَّائِمِ, وَهُوَ في الحقيقةِ بمنزلةِ عشائِه، إلا أنه تأخّر, فالصائمُ له في اليومِ والليلةِ أكلةٌ، فإن أكَلَها في السَّحَرِ كان قد نَقَلَها من أولِ الليلِ إلى آخرِه».

هَدْيُهُ صلى الله عليه و سلم فِي ثُبُوتِ الشَّهْرِ:

وَكانَ مِنْ هَدْيِهِ صلى الله عليه و سلم أَنْ لَا يَدخُلَ فِي صَومٍ إِلَّا بِرُؤْيَةٍ مُحَقَّقَةٍ, أَوْ بِشَهادَةِ شَاهِدٍ وَاحِدٍ، كما صَامَ بِشَهادَةِ ابْنِ عُمَرَ، وَصَامَ مَرَّةً بِشَهَادَةِ أَعْرابِيٍّ، وَاعْتَمدَ عَلى خَبَرِهِمَا، وَلَم يُكَلِّفْهُما لَفْظَ الشَّهَادَةِ، فَإِنْ كَان ذَلِكَ إِخْبَارًا فَقَدِ اكْتَفَى فِي رَمضَانَ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ، وَإِنْ كَان شَهادَةً، فَلَمْ يُكلِّف الشَّاهدَ لَفظَ الشَّهَادَةِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُؤيةٌ ولا شَهادةٌ، أَكْمَلَ عِدَّةَ شعبانَ ثَلاثِينَ يَومًا.

وَكَانَ إِذَا حَال لَيلَةَ الثَّلاثِينَ –دُونَ مَنْظَرِهِ –غَيمٌ أَوْ سَحابةٌ، أَكْملَ عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِين يَومًا، ثُمَّ صَامَ.

وَلَمْ يَكُنْ يَصُوم يَوْمَ الْإِغْمَامِ, وَلَا أَمَرَ بِه، بَلْ أَمَر بِأَنْ تُكْمَل عِدَّةُ شَعبانَ ثَلاثِينَ إِذا غُمَّ، وَكانَ يَفْعلُ ذَلِكَ، فَهذَا فِعلُه، وَهَذَا أَمْرُه, وَلَا يُنَاقِضُ هَذا قَوْلَه: «فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ»[مُتفقٌ عَلَيْهِ].

فَإِنَّ القَدْرَ هُو الحِسَابُ المَقدَّرُ, وَالمرَادُ بِهِ: إِكْمَالُ عِدَّةَ الشَّهرِ إِذَا غُمَّ, كما قَالَ فِي الحدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ البُخَارِيُّ: «فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ».

هَديُهُ فِي الخُرُوجِ مِنَ الشَّهْرِ:

وَكَان مِنْ هَدْيِهِ صلى الله عليه و سلم:أَمْرُ النَّاسِ بِالصَّوْمِ بِشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ المسْلِمِ، وَخُروجُهُمْ مِنْهُ بِشَهَادَةِ اثْنَيْنِ.

وَكَانَ مِنْ هَدْيِه:إِذَا شَهِدَ الشَّاهِدَانِ بِرُؤْيَةِ الهِلالِ بَعدَ خُرُوج وَقْتِ الْعِيدِ أَنْ يُفْطِرَ، وَيَأْمُرَهُمْ بِالفِطْرِ، وَيُصلِّي العِيدَ مِنَ الْغَدِ فِي وَقْتِها.

هَدْيُ النّبِيّ صلى الله عليه و سلم فِي رَمضَانَ(٢)

قَالَ الْإِمامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَكَان صلى الله عليه و سلم يُعَجِّلُ الفِطرَ، وَيحضُّ عَليهِ، وَيَتسَحَّرُ، وَيَحُثُّ عَلى السُّحورِ، وَيُؤخِّرُه، وَيُرغِّبُ فِي تَأْخِيرِه.

وَكَانَ يَحضُّ عَلى الفِطْرِ بِالتَّمْرِ، فَإِنْ لَم يَجِدْ فَعلَى المَاءِ، هَذا مِنْ كَمالِ شَفَقَتِه عَلى أُمَّتِه، وَنُصحِهِمْ، فَإِنَّ إِعطَاء الطَّبيعةِ الشَّيءَ الحُلْوَ مَع خُلوِّ المعِدَةِ أَدْعَى إِلى قَبُولِه، وَانْتِفاعِ القُوَى بِهِ، وَلَاسِيَّما القُوَّةُ البَاصِرةُ، فَإِنَّها تَقْوَى بِهِ.

وَحَلَاوةُ المدِينةِ التَّمْرُ، وَمُرَبَّاهُمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ عِندهُمْ قُوتٌ وأُدْمٌ، ورُطَبُه فَاكهَةٌ.

وَأَمَّا الماءُ: فَإِنَّ الكَبِدَ يَحْصُل لَها بِالصَّومِ نَوْعُ يَبَسٍ، فَإِذا رُطِّبتْ بِالماءِ، كَمُل انْتِفاعُهَا بِالغِذاءِ بَعْدَه، وَلهذَا كَان الْأَوْلَى بِالظَّمْآن الجَائِعِ أَنْ يَبْدَأ قَبْلَ الْأَكْلِ بِشُرْبِ قَلِيلٍ مِن الماءِ، ثُمَّ يأكُلُ بَعدَهُ.

هَذا مَعَ مَا فِي التَّمْرِ وَالماءِ مِنَ الخَاصِّيَّة الَّتِي لَها تأثيرٌ فِي صَلَاحِ القَلْبِ, لَا يعلَمُهَا إِلَّا أَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ.

مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم فِي فِطْرِه

- وَكَانَ صلى الله عليه و سلم يُفْطِرُ قَبْل أَنْ يُصَلِّي.

- وَكَان فِطْرُه عَلى رُطَباتٍ –إِنْ وَجَدَها –فَإِنْ لَم يَجِدْها فَعَلى تَمْرَاتٍ, فَإِنْ لـمْ يَجِدْ، فَعَلى حَسَواتٍ مِنْ مَاءٍ.

- وَرُوِي عَنْه أَنَّه كَانَ يقُولُ إِذَا أَفْطَر: «ذَهَبَ الظَّمَأُ, وَابتَلَّتِ العُروقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى»[رَوَاه أَبُودَاوُدَ].

وَيُذْكَرُ عَنْه صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِه دَعْوةً مَا تُرَدُّ»[رَواه ابْنُ مَاجَه].

وَصَحَّ عَنْه أَنَّه قَالَ: «إِذَا أَقْبَل اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ مِنْ هَاهُنَا, فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»[مُتَّفَقٌ

عَلَيْهِ].

وَفُسِّرَ بِأَنَّهُ قَدْ أَفْطَر حُكْمًا، وَإِنْ لَمْ يَنْوِهِ، وَبِأَنَّه قَدْ دَخَلَ وَقتُ فِطْرِه، كَأَصْبحَ وَأَمْسَى.

آدَابُ الصَّـــائِم

وَنَهى صلى الله عليه و سلم الصَّائِمَ عَنِ الرَّفْثِ وَالصَّخَب، والسِّبَاب، وَجَوابِ السِّبَابِ, فَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لِمَنْ سَابّه: «إِنِّي صَائِمٌ»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

فَقِيلَ:يَقُولُ بِلِسَانِه وَهُو أَظْهَرُ.

وَقِيل:بِقَلْبِهِ؛ تَذْكِيرًا لنفْسِهِ بِالصَّوْمِ.

وَقِيل:يَقُولُه فِي الْفَرْضِ بِلِسَانِهِ، وَفِي التَّطَوُّعِ فِي نَفْسِه، لِأَنَّه أَبْعدُ عَنِ الرِّيَاءِ.

هَدْيُه صلى الله عليه و سلم فِي السَّفَرِ فِي رَمَضَانَ

وَسَافَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ وَأَفْطَر، وَخيَّر الصَّحَابةَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

وَكَانَ يَأْمُرُهُمْ بِالْفِطْر إِذَا دَنَوْا مِنْ عَدُوِّهِمْ؛ لِيَتَقَوَّوْا عَلى قِتَالِه.

وَأَمَّا إِذَا تجرَّد السَّفَرُ عَنِ الجِهَادِ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم يَقُولُ فِي الفِطْرِ: هِي رُخْصَةٌ، فَمَنْ أَخذَ بِها فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاح عَلَيْهِ.

وَسَافَر رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِي أَعْظَمِ الْغَزَواتِ وَأَجَلِّها: فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَفِي غَزَاةِ الْفَتْحِ.

وَلم يَكُنْ مِنْ هَدْيِه صلى الله عليه و سلم تَقْديرُ مَسَافَةِ السَّفَرِ الَّتِي يُفْطِرُ فِيهَا الصَّائِمُ بَحدٍّ، وَلَا صحَّ عَنْه فِي ذَلك شَيءٌ.

وَكانَ الصَّحَابةُ حِينَ يُنْشِؤونَ السَّفرَ يُفْطِرُونَ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارِ مُجَاوَزَةِ البُيُوتِ, ويُخبِرُونَ أَنَّ ذَلِكَ سُنَّتُه وَهَدْيُه صلى الله عليه و سلم، كَمَا قَال عُبَيْدُ بْنُ جَبْرٍ: رَكِبتُ مَع أَبِي بَصْرةَ الغِفَارِيِّ

صَاحِب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِي سَفِينةٍ مِنَ الفُسْطَاطِ فِي رَمضَانَ، فَلَمْ يُجَاوِزِ البُيُوتَ حَتَّى دَعَا بِالسُّفْرَةِ وَقَالَ: اقْتَرِبْ. قُلْتُ: أَلسْتَ تَرَى البُيُوتَ؟ قَالَ أَبُو بَصْرةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم؟. [رواه أحمد وأبوداود].

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنِ كَعْبٍ: أَتَيتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فِي رَمَضَانَ، وَهُوَ يُرِيدُ سَفَرًا, وَقَد رُحِّلَتْ لَهُ رَاحِلَتُه، وَقَدْ لَبِسَ ثِيابَ السَّفَرِ، فَدَعا بِطَعَامٍ فَأَكَلَ، فَقُلْتُ لَهُ: سُنَّةٌ؟ قَالَ: سُنَّةٌ. ثُمَّ رَكِبَ.

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَهَذِهِ الآثَارُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ مَنْ أَنْشأَ السَّفَرَ فِي أَثْنَاءِ يَوْمٍ مِنْ رَمضَانَ، فَلَهُ الفِطْرُ فِيهِ.

هَدْيُ النّبِيّ صلى الله عليه و سلم فِي رَمضَانَ (٣)

وَكَانَ مِنْ هَدْيِه صلى الله عليه و سلم أَنْ يُدْرِكَهُ الْفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ أَهْلِه، فَيَغْتَسِلُ بَعْدَ الْفَجْرِ –أَيْ بَعْدَ الأذَانِ –وَيَصومُ.

وَكَانَ يَقَبِّلُ بَعْضَ أَزْوَاجِه وَهُوَ صَائِمٌ فِي رَمَضَانَ([١])، وَشبَّه قُبْلَةَ الصَّائِمِ بِالمضْمَضَةِ بِالماءِ.

هَدْيُهُ صلى الله عليه و سلم فِيمَنْ أَكَل أَوْ شَرِبَ نَاسِيًا

وَكَانَ مِنْ هَدْيِه صلى الله عليه و سلم إِسْقَاطُ الْقَضَاءِ عَمَّنْ أَكَلَ وَشَرِبَ نَاسِيًا، وَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ، فَلَيْسَ هَذَا الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ يُضَافُ إِلَيْه، فَيُفْطِرُ بِه، فَإِنَّما يُفْطِرُ بِمَا فَعَلَهُ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ أَكْلِه وَشُرْبِه فِي نَوْمِه، إِذْ لَا تَكْلِيفَ بِفِعْلِ النَّائِمِ، وَلَا بِفِعْلِ النَّاسِي.

مُفْطِرَاتُ الصّائِمِ

وَالَّذِي صَحَّ عَنْهُ صلى الله عليه و سلم أَنَّ الَّذِي يُفْطِرُ بِه الصَّائِمُ: الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ([٢])، وَالحِجَامَةُ، وَالْقِيءُ.

وَالْقُرْآنُ دَالٌّ عَلَى أَنَّ الجِمَاعَ مُفَطِّرٌ، كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَا يُعْرَفُ فِيهِ خِلَافٌ، وَلَا يَصِحّ عَنْهُ صلى الله عليه و سلم فِي الْكُحْلِ شَيْءٌ وَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَاكُ وَهُوَ صَائِمٌ.

- وَذَكَر الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْهُ أَنَّه كَانَ يَصُبُّ المَاءَ عَلَى رَأْسِه وَهُوَ صَائِمٌ.

- وَكَانَ يَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ وَهُوَ صَائِمٌ, وَمَنَعَ الصَّائِمَ مِنَ المبَالَغَةِ فِي الاِسْتِنْشَاقِ.

- وَلَا يَصِحُّ عَنْهُ أَنَّه احْتَجَمَ وَهُوَ صَائِمٌ، قَالَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

- وَلَا صَحّ عَنْهُ أَنَّهُ نَهَى عَنِ السِّوَاكِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَلَا آخِرِه.

---

١ كَرِهَ أَهْلُ الْعِلْمِ الْقُبْلَةَ لِلصَّائِمِ إِذَا كَانَ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ.

٢ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ يُشْبِهُهُمَا كَالإِبَرِ المغَذِيَّةِ.

هَدْيُه صلى الله عليه و سلم في الاعْتِكَاف

كَانَ صلى الله عليه و سلم يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمضانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ، وَتَرَكَهُ مَرَّةً فَقَضَاهُ فِي شَوَّالٍ.

وَاعْتكَفَ مَرَّةً فِي الْعَشْرِ الأَوَّلِ، ثُمَّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ الْعشر الْأَخِيرِ، يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّها فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَدَاوَمَ عَلى اعْتِكَافِهِ حَتَّى لَحِقَ بِرَبِّه عَزَّ وجلَّ.

- وَكَانَ يأْمُرُ بِخِبَاءٍ, فَيُضْرَبُ لَهُ فِي المسْجِدِ يَخْلُو فِيهِ بِربِّه عزَّ وجلَّ.

- وَكَانَ إِذَا أَرَادَ الاِعْتِكافَ صَلَّى الْفَجْرَ ثُمَّ دَخَلَهُ.

- وَكَانَ صلى الله عليه و سلم يَعْتَكِفُ كُلَّ سَنَةٍ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، اعْتكَفَ عِشْرِينَ يَوْمًا.

- وَكَانَ يُعَارِضُهُ جِبْرِيلُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْعَامُ [الَّذِي قُبِضَ فِيه] عَارَضَهُ بِه مَرَّتَيْنِ.

- وَكَانَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ أَيضًا فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عَلَيْهِ تِلْكَ السَّنَةَ مَرَّتَيْنِ.

- وَكَانَ صلى الله عليه و سلم إِذَا اعْتَكَفَ دَخَلَ قُبَّتَهُ وَحْدَهُ.

- وَكَانَ لَا يَدْخُلُ بَيْتَهُ فِي حَالِ اعْتِكَافِهِ إِلَّا لحَاجَةِ الْإِنْسَانِ.

- وَكَانَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ مِنَ المسْجِدِ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، فَتُرَجِّلَهُ، وَتَغْسِلَهُ وَهُوَ فِي المسْجِد، وَهِيَ حَائِضٌ.

- وَكَانَتْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ تَزُورُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ, فَإِذَا قَامَتْ تَذْهَبُ، قَامَ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلاً.

- وَلَمْ يُبَاشِرِ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ, لَا بِقُبْلَةٍ وَلَا غَيْرِهَا.

- وَكَانَ إِذَا اعْتَكَفَ طُرِحَ لَهُ فِرَاشُهُ، وَوُضِعَ لَهُ سَرِيرُهُ فِي مُعْتَكِفِهِ.

- وَكَانَ إِذَا خَرَجَ لحَاجَتِه مَرَّ بالمرِيضِ وَهُوَ عَلَى طَرِيقِه، فَلَا يُعَرِّجُ عَلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُ عَنْهُ.

- وَاعْتَكَفَ مَرَّةً فِي قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ, وَجَعَلَ عَلى سُدَّتِها حَصِيرًا؛ كلُّ ذَلِكَ تَحْصِيلاً لمقْصُودِ الاِعْتِكَافِ وَرُوحِه، عَكْسَ مَا يَفْعلُه الجُهَّالُ مِنَ اتِّخَاذِ المعتَكَفِ مَوْضِعَ عِشْرَةٍ، وَمَجْلَبَةً لِلزَّائِرِينَ، وَأَخْذَهم بِأَطْرَافِ الحَدِيثِ بَيْنَهُمْ, فَهَذَا لَوْنٌ، وَالِاعْتِكَافُ النَّبَوِيُّ لَوْنٌ آخَرُ وَاللهُ الموَفِّقُ.

النّسَبِ الشّرِيفِ وَطَهَارَةِ أَصْلِهِ صلى الله عليه و سلم

نَسَبُهُ صلى الله عليه و سلم:

هُو أَبُو الْقَاسِمِ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لؤَيِ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.

هَذَا هُوَ المتَّفَقُ عَلَيْهِ فِي نَسَبِهِ صلى الله عليه و سلم.

وَاتَّفَقُوا أَيْضًا عَلَى أَنَّ عَدْنَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أَسْمَاؤُه صلى الله عليه و سلم:

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم قَالَ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ, وَأَنَا أَحْمَدُ, وَأَنَا الماحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ, وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»[متفق عليه].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم يُسَمِّي لَنَا نَفْسَه أَسْمَاءً فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ, وَالمُقَفِّي, وَالْحَاشِرُ, وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيّ الرَّحْمَةِ»[رواه مسلم].

طَهَارَةُ أَصْلِهِ صلى الله عليه و سلم:

وَهَذَا مِمَّا لَا يَحْتَاجُ إِلى دَلِيلٍ فَإِنَّهُ صلى الله عليه و سلم المصْطَفَى مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَسُلَالَةِ قُرَيْشٍ، فَهُو أَشْرَفُ الْعَرَبِ نَسَبًا, وَهُوَ مِنْ مَكَّةَ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

وَقَدِ اعْتَرف أَبُو سُفْيَانَ –وَذَلِكَ قَبْل إِسْلَامِهِ–بِعُلُوِّ نَسَبِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم وَشَرَفِه وَذَلك حِينَما سَأَلَهُ هِرَقْلُ عَنْ نَسَبِه فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هُوَ فِينا ذُوْ نَسَبٍ. فَقَال هِرَقْلُ: وَكَذَلِك الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. [متفق عليه].

وَقَال صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْراهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا, وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[رواه مسلم].

وَمِنْ طَهَارَةِ نَسَبِه صلى الله عليه و سلم أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ صَانَ وَالِدَيْهِ مِنْ زَلَّةِ الزِّنَا, فَوُلِد صلى الله عليه و سلم مِنْ نِكَاحٍ صَحِيح وَلَمْ يُولَدْ مِنْ سِفَاحٍ([٣])، كَمَا قَالَ صلى الله عليه و سلم: «خَرَجْتُ مِنْ نِكاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، لَمْ يُصِبْنِي مِنْ سِفَاحِ الجاهِلِيَّةِ شَيءٌ»[رواه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «خَرَجْتُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ»[رواه ابن سعد وحسَّنه الألباني].

وَرَوى ابْنُ سَعْدٍ وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنِ الْكَلْبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: كَتَبْتُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم خَمْسَمِائَةَ أُمٍّ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِنَّ سِفَاحًا، وَلَا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الجاهِلِيَّةِ.

قَوْلُه: «خَمْسُمائَةَ أُمٍّ»: يُرِيدُ الجدَّاتِ وَجَدَّاتِ الجدَّاتِ مِنْ قِبَل أبيه وَأُمِّه.

قَالَ النَّاظِمُ:

مِنْ عَهْدِ آدَمَ لَمْ يَزَلْ تَحْمِي لَهُ ... فِي نَسْلِهَا الْأَصْلَابُ وَالْأَرْحَامُ

حَتَّى تَنَقَّلَ فِي نِكَاحٍ طَاهِرٍ ... مَا ضَمَّ مُجْتَمِعَيْنِ فِيهِ حَرَامُ

فَبَدا كَبَدْرِ التمِّ لَيْلَةَ وَضْعِهِ ... مَا شَانَ مَطْلَعَهُ المنِيرَ قَتَامُ

فَانْجَابَتِ الظَّلْمَاءُ مِنْ أَنْوَارِهِ ... وَالنُّورُ لَا يَبْقَى عَلَيْهِ ظَلَامُ

شُكْرًا لمُهْدِيهِ إِلَيْنَا نِعْمَةً ... لَيْسَتْ تُحِيطُ بِكُنْهِها الْأَوْهَامُ

٣ السِّفَاحُ: الزِّنَا.

صِـــدْقُـــه صلى الله عليه و سلم وَأَمَانَــتُه

اشْتُهِر النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم قَبلَ الْبعثَةِ فِي قَوْمِه بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، وَكَان يُعْرَفُ بَينهُم بِالْأَمِين، وَهُو لَقَبٌ لَا يتَّصِف بِه إِلَّا مَنْ بَلَغَ الغَايَةَ فِي الصِّدقِ وَالْأَمَانَةِ وَغَيْرِهما مِنْ خِصَال الخَيْرِ.

وَقَدْ شَهِدَ لَهُ صلى الله عليه و سلم أَعداؤه بِذَلِك. فَهَذَا أَبُو جَهْلٍ كَانَ مَعَ بُغْضِه للنَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم وَتَكْذِيبه لَهُ يَعْلَم أَنَّه صَادِقٌ، وَلِذَلِكَ لَما سَأَلَهُ رَجُلٌ: هَلْ مُحَمَّدٌ صَادِقٌ أَمْ كَاذِبٌ؟ قَالَ لَهُ: وَيْحَكَ! وَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ إِذَا ذَهبتْ بَنُو قُصَيّ بِاللِّوَاءِ وَالسِّقَايَةِ، وَالحجَابَةِ وَالنُّبُوَّةِ، فَمَاذا يَكُونُ لِسَائِر قُرَيْشٍ؟!

وَهَذَا أَبُو سُفْيَانَ وَكَانَ –قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ - مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوةً لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم لَما سَأَلَهُ هِرَقْلُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَه بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُول مَا قَالَ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَا.

فَقَالَ هِرَقْلُ: وَسَأَلتُكَ هَلْ كُنتُمْ تَتَّهِمُونَه بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرتَ أَنْ لَا. فَقَدْ عَرَفتُ أَنَّه لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ.

وَهَذِه خَدِيجةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لَما جَاءَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم يَرْتَجِفُ وَيقُولُ: «زَمِّلُونِي دَثِّرُونِي»، وَذَلِك إِثْرَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ بِغَارِ حِرَاءٍ، قَالَتْ لَه: أَبْشِر كَلَّا وَاللهِ، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُق الحدِيثَ...»[متفق عليه].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ [الشعراء: ٢١٤]خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم حَتَّى صَعِد الصَّفَا، فَهَتَف: «يَا صَبَاحاهُ»فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُم إِنْ أَخْبَرتُكمْ أَنَّ خَيْلاً بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيّ؟»قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدِي عَذَابٍ شَدِيدٍ»[متفق عليه].

إِنَّ صِدْقَ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم وَأَمَانتَه قَدْ جعلَتِ المشْرِكِينَ يَتَخبَّطُونَ فِي الحُكْمِ عَلَيْهِ، فَمَرَّةً يَقُولُون: سَاحِرٌ كَذَّابٌ، وَمَرَّةً يقولونَ شَاعِرٌ، وَمَرَّةً يقُولونَ كَاهِنٌ, ومَرَّةً يقُولونَ مَجْنُونٌ, وَكَانوا يَتَلاوَمُون فِي ذَلِك، لأنَّهمْ يَعلَمُون جَمِيعًا بَراءَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم مِنْ هَذِه الأَوْصَافِ وَالأَلْقَابِ الذَّمِيمَةِ.

فَهذَا النَّضْرُ بْنُ الحارِثِ الَّذِي بَالَغَ فِي إيذَاءِ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم قَالَ لِقُرِيش: يَا مَعْشَرَ قُرَيش! إنَّه –وَاللهِ –قَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمرٌ مَا ابتُلِيتُم بِمثلِه؛ لَقَدْ كَانَ مُحمدٌ فِيكُمْ غُلامًا حَدَثًا، أَرْضَاكم عَقْلًا، وَأَصْدَقَكُم حَدِيثًا، وَأَعْظَمَكُم أَمَانَةً، حَتّى إذَا رأيتُمْ فِي صِدْغَيهِ الشِّيبَ، وَجَاءكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِه قُلتُم سَاحِرٌ، لَا –واللهِ –مَا هُوَ بِسَاحِرٍ. وَقُلْتُمْ كَاهِنٌ، لَا وَاللهِ مَا هُوَ بِكاهِنٍ. وَقُلْتُمْ شَاعِرٌ, وقلتُمْ مَجنونٌ, ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَر قُرَيشٍ! انْظُرُوا فِي شأنِكُم, فَإنَّه –واللهِ –لَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

وَأَمَّا أمانةُ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم فَإنَّهَا كانَتْ سَببًا مُبَاشِرًا فِي رَغْبَةِ خَدِيجةَ رَضِي اللهُ عَنْها أَنْ تَكُونَ زَوْجةً للنَّبيِّ صلى الله عليه و سلم حَيْثُ كَانَ يُشْرِفُ عَلى تَجَارَتِهَا بالشَّامِ، وَقَدْ عَلِمتْ مِنْ غُلَامِها مَيْسَرةَ مَا بَهَرهَا مِن أَمانَتِه وَكَرِيمِ أَخْلَاقِه صلى الله عليه و سلم.

وَمِنْ أَمَانَتِه صلى الله عليه و سلم أَنَّ مُشْرِكي قُرَيشٍ –مَعَ كُفْرِهِمْ بِه وتكْذِيبِهِمْ لَهُ –كَانُوا يَضعُون عِنْدَه أَمْوالَهم، وَيَستأْمِنُونَه عَلَيْهَا، وَلمّا أَذِنَ اللهُ تَعالى لَهُ بالهِجْرَةِ إِلَى المدِينَةِ خَلَّف النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم عَليًّا رضي الله عنه فِي مَكَّة لِتَسْلِيم الأَمَانَاتِ إِلَى أهلِها.

إِنَّ أَعْظَم الأَمَانَاتِ الَّتِي تحمَّلَها النبيُّ صلى الله عليه و سلم وَأَدَّاهَا أَحْسَن الْأَدَاءِ وَأكملَه هِي أمانةُ الوَحْيِ وَالرِّسَالةِ الَّتِي كَلَّفَهُ اللهُ تَعَالَى بِتَبلِيغِها للنَّاسِ, فَبلَّغَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم الرِّسَالةَ أَعْظَم البَلاغ، وَأَدَّى الأَمَانَةَ أَعْظَمَ الأداءِ، وَجَاهَدَ أَعْدَاء اللهِ تَعالى بالحُجَّةِ والبَيَانِ، وَالسَّيفِ والسِّنانِ, فَفَتحَ اللهُ بِه الفُتوحَ، وَشرحَ لدعْوَتِه صُدورَ المؤمِنينَ, فَآمَنُوا بِه وَصَدَّقُوهُ ونَصرُوهُ وآزَرُوهُ، حَتَّى علتْ كَلِمةُ التَّوْحِيدِ، وانْتَشرَ الْإِسلامُ فِي مَشَارِق الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَلَمْ يَبْقَ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إِلَّا أَدخلَه اللهُ تَعالى هَذَا الدينَ. فَصلواتُ اللهِ وسلامُه عَلى الصَّادِق الأَمِينِ الَّذِي جَاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جِهادِه حَتّى أَتاهُ الْيقِينُ.

فِي الميثَاقِ وَبُشْرَى الأَنْبِيَاءِ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و سلم

قَالَ تَعَالى: وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَفَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ [آل عمران: ١٨ –٢٨].

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ عَمِّهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ, إِلَّا أُخِذَ عَلَيهِ الميثَاقُ، لَئِنْ بَعثَ اللهُ مُحَمَّدًا وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤمِنَنَّ بِه ويَنْصُرَنَّه. وَأَمرَهُ أَنْ يَأخُذَ الميثَاقَ عَلَى أُمَّتِه؛ لَئِنْ بُعِثَ مُحمدٌ وَهُمْ أَحْيَاءُ، لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّه([٤]).

وَرُوِي عَنِ السُّدِّيِّ نَحْوُه.

وَقَالَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى حَاكِيًا عَنْ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلامُ: رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ [البقرة: ٩٢١].

قَالَ ابْنُ كَثِير: «يَقُولُ تَعالَى إِخْبَارًا عَنْ تَمام دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ الحَرَمِ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَيْ مِنْ ذُرِّيةِ إِبْرَاهِيمَ وَقَدْ وَافَقَتْ هَذِهِ الدَّعوةُ المسْتَجابةُ قَدَرَ اللهِ السَّابِقَ فِي تَعْيِينِ مُحَمَّدٍ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُه عَلَيْهِ رَسُولاً فِي الْأُمِّيِّينَ إِلَيهِمْ وَإِلَى سَائِرِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالجِنِّ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَد عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «إِنِّي عِنْدَ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ, وَإِنَّ آدَمَ لمنْجَدِلٌ فِي طِينَتِه، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعوةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى بِي، وَرُؤيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِك أُمَّهاتُ النَّبِيِّين يَرَيْنَ».

وَلم يَزَلْ ذِكْرُه صلى الله عليه و سلم فِي النَّاسِ مَذْكُورًا مَشْهُورًا سَائِرًا، حَتَّى أَفْصَح بِاسْمِه خَاتَمُ أَنْبياءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسَبًا وَهُوَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْه السَّلَامُ, حَيْثُ قَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ خَطِيبًا وَقَالَ: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا

٤ تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٤٩٣/١).

سِحْرٌ مُّبِينٌ [الصف: ٦]وَلهذَا قَالَ فِي هَذا الحدِيثِ: «دَعوةُ أَبِي إِبْرَاهِيم، وبُشْرَى عِيسَى ابْنِ مَرْيم»([٥]).

وَأَمَّا وُرودُ ذِكْر فَضَائِله صلى الله عليه و سلم وَمنَاقِبه فِي الكُتُب القَدِيمَة، فَيدُلُّ عَلَيْهِ قَولُ اللهِ تَعَالى: ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ [الأعراف: ٧٥١].

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَاللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنه فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِي التَّوْرَاةِ.

قَالَ: أَجَلْ وَاللهِ، إِنَّه لموْصُوفٌ في التَّورَاةِ بِصِفَتِهِ فِي القُرْآنِ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا [الأحزاب: ٥٤]، وَحِرْزًا للأُمِّيِّينَ, أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولي, سَمَّيتُكَ المتَوَكِّلَ, لَيْسَ بِفَظٍّ, وَلَا غَلِيظٍ, وَلَا صَخَّاب فِي الْأَسْوَاقِ, وَلَا يُجْزِي بالسَّيِّئَةِ السَّيئةَ, وَلكِنْ يَعفُو وَيغْفِر، ولَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الملَّةَ العَوْجَاءَ؛ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ, فَيَفْتَحُ بِه أَعْيُنًا عُمْيًا, وَآذانًا صُمًّا, وَقُلُوبًا غُلْفًا. [رواه البخاري].

وَرَوَى البَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ الجَارُودُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ فَأَسْلَمَ وَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحقِّ لَقَدْ وَجَدتُ وَصْفَك فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَقَدْ بشَّر بِك ابْنُ البَتُولِ. أَيْ عِيسَى بْنَ مَريمَ عَليه السَّلَامُ.

وَعَنْ أَبِي مُوسى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّجَاشِيُّ: أَشْهدُ أَنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ اللهِ, وَأَنَّه الَّذِي بَشَّر بِهِ عِيسى، وَلوْلَا مَا أَنَا فِيه مِنْ أَمْرِ المُلْكِ، وَمَا تَحمَّلتُ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ، لأَتَيْتُه حَتَّى أَحْمِلَ نَعْلَيْه [رواه أبوداود].

٥ تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيْرٍ (٢٤٣/١).

نَبِيِّ الرَّحْمَةِ (١)

رَحْمَتُه صلى الله عليه و سلم بِأَعْدَائِه:

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم رَحْمةً لِلبَشَرِيَّةِ كُلِّها، وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذَلِكَ فَقَال: وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ [الأنبياء: ٧٠١].

وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم: «إِنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً»[رواه مسلم].

فَكَانَتْ رَحْمتُه صلى الله عليه و سلم رَحْمةً عَامَّةً شَمِلَتِ المؤْمِنَ وَالكَافِرَ، فَهَا هُوَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ رضي الله عنه، يَيأْسُ مِن هِدَايةِ قَبيلَتِه دَوْس، فَيذْهَبُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ دَوْسًا قَد عَصَتْ وَأَبتْ, فَادْعُ اللهَ عَلَيْها.

فَاسْتَقْبَل الرَّسولُ صلى الله عليه و سلم الْقِبلةَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَأَيْقَن النَّاسُ بِهَلاكِ دَوْسٍ إِذَا دَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم، وَلَكِنَّ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ صلى الله عليه و سلم قَالَ: «اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وائتِ بِهِمْ»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

دَعَا لَهُمْ بِالهِدَايةِ وَالرَّشَادِ، وَلَمْ يَدْعُ عَلَيْهِم بِالعَذَابِ وَالاِسْتِئْصَالِ, لأَنَّه لَا يُرِيدُ للنَّاسِ إِلَّا الخَيْرَ وَلَا يَرْجُو لَهُمْ إِلَّا الفَوْزَ وَالنَّجَاةَ.

وَيَذْهَبُ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم إِلى الطَّائِفِ لِدَعْوَةِ قَبَائِلِها إِلَى الْإِسْلَامِ, فَيُقَابِلُهُ أَهْلُهَا بِالجُحُودِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالاِسْتِهْزَاءِ، وَيُغْرُوا بِه سُفَهَاءَهُمْ، فَيَضْرِبُوهُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمُ مِنْ عَقِبَيْهِ صلى الله عليه و سلم.

وَتَرْوِي عَائِشةُ رَضِي اللهُ عَنْهَا مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ فَتَقُولُ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَومٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ - وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُم - يَوْمَ الْعَقَبةِ، إِذْ عَرضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْد يَا لَيْلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلى مَا أَردْتُ, فَانْطَلقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتفِقْ إِلا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي, فَنظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ, فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ

قَوْمِك لَك وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بعثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبَال؛ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد! إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِك لَك، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ, وَقَدْ بَعَثَنِي اللهُ إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِك فَما شِئْتَ؟ إنْ شِئتَ أَنْ أُطْبِق عَلَيْهِم الْأَخْشَبَيْنِ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[متفق عليه].

إنَّها الرَّحْمَةُ النَّبَوِيَّةُ الَّتِي جَعلَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه و سلم يَنْسَى جِرَاحَه الَّتِي تَسِيلُ, وَقَلْبَه المنْكِسِرَ، وَفُؤادَه المكْلُومَ، وَلَا يَتذكَّر سِوَى إيصَالِ الخيْرِ لِهؤلاءِ النَّاسِ وَإِخْرَاجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّور وَهِدَايتَهُمْ إلَى الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ.

وَيفْتَحُ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم مَكَّةَ، وَيدْخُلُها فِي عَشْرةِ آلافِ مُقَاتِلٍ, وَيُحكِّمُه اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِي رِقَاب مَنْ آذَوْه وَطَردُوه وَتَآمَرُوا عَلَى قَتْلِه، وَأَخْرَجُوه مِن بَلدِهِ، وَقَتلُوا أَصْحَابَه وَفَتنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ.

فَيَقُولُ أَحَدُ الصَّحَابَةِ وَقَدْ تَمَّ هَذَا الفَتْحُ الْأَعْظَمُ «اليومَ يَوْمُ الملْحَمَة»فَيَقُولُ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم: «بَلْ اليَوْمَ يَومُ المرْحَمَةِ».

ثُمَّ يخْرُج النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم إلى هَؤُلاءِ المنْهزِمِينَ وَقَدْ شَخِصتْ أَبْصَارُهمْ, وَوجِلَتْ قُلوبُهمْ, وَجَفَّتْ حُلُوقُهمْ، يَنْتَظِرونَ مَاذا سَيفْعَلُ بِهِم هَذا القَائِدُ المنتَصِرُ، وَهمُ الَّذينَ اعْتادُوا عَلى الْغَدْرِ وَالانْتِقامِ وَالتَّمثيلِ بِقَتْلى المسْلِمينَ كَمَا فَعلُوا فِي أُحُدٍ وَغَيْرِهَا.

فَقَالَ لَهمْ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم: «يَا معْشَر قُرَيْشٍ مَا ترونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟».

قَالُوا: خَيْرًا! أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أخٍ كَرِيمٍ.

فَقَالَ لَهم النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»فَانْطلَقوا كَأَنَّهم نُشِروا مِنَ القُبورِ.

فَهذَا العَفْو الشَّاملُ نَتيجةُ الرَّحْمةِ الَّتِي فِي قَلْبِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم، وَالَّتِي عَظُمَتْ لتَشْمَل أَكْثرَ أَعْدَائِهِ إيذاءً لَه وَلأَصْحَابِه, فَلَوْلَا هَذِهِ الرحمةُ لما حَدثَ هَذا الْعَفْوُ، وَصَدقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم إذْ يَقُول: «إنَّما أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[رَوَاه الحاكم].

نَبِيّ الرّحْمَةِ (٢)

رَحْمَتُهُ صلى الله عليه و سلم بِالْحَيَوَانِ وَالْجَمَادِ:

ذَكَرْنَا أَنَّ الرحمةَ النَّبويَّةَ اتَّسعَتْ لِتشْملَ الْكَافِرَ فَضْلاً عَنِ المسْلِمِ الموَحِّدِ، وَنَزِيدُ هُنَا أَنَّ رحْمةَ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم تَجاوَزَتِ الجنْسَ البَشرِيَّ حَتَّى شَمِلَتِ الحَيوَانَ والجَمَادَ، فَقَدْ قَال النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَد بِئْرًا, فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ, ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ, فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»قَالُوا: يَا رَسولَ اللهِ! وَإِنَّ لَنَا فِي هَذه البَهائِمِ لأَجْرًا؟ فَقَال صلى الله عليه و سلم: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[مُتَّفَقٌ عليه].

بِهذِه الْقَاعِدةِ الْعَامَّةِ «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»سَبقَ النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم جَمِيعَ المنظَّماتِ وَالهيْئَاتِ الَّتِي تُعنَى بِالدِّفَاع عَنْ حُقُوقِ الحيوَان وَالرِّفْقِ بِهِ، سَبَقها النبيُّ صلى الله عليه و سلم بِمِئاتِ السِّنينَ يَوْمَ قَال: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ, سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ, لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»[متفق عليه].

وَالنَّبيُّ صلى الله عليه و سلم يَقْصِدُ بِهذَا تَعلِيمَ أَصْحَابِهِ الرِّفْقَ بِالحيوَانِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْه، وَيُبيِّنُ لَهمْ أَنَّ قَتلَ الحيوَانَ غَيْرِ المأذُونِ فِي قتْلِه, أَوْ التَّسبُّبَ فِي قَتْلِه يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ سَببًا فِي دُخُولِ النَّارِ وَالعِياذُ بِاللهِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا تَعْرِفُه القَوانِينُ الوَضْعِيَّةُ الَّتِي يحكُمُ بِها النَّاسُ اليَوْمَ.

وَحَذَّر النبيُّ صلى الله عليه و سلم مِن قَتْلِ الحَيوَانِ بِلَا هَدفٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، إِلَّا سَأَلَهُ اللهُ عَنْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ». قِيل: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا حقُّها؟ قَالَ: «حَقُّهَا أَنْ يَذْبَحَهَا فَيَأْكُلَهَا, وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا فَيَرْمِي بِهِ»[رواه النَّسائيُّ].

وَقَدْ أَمَرَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بِالإِحْسَانِ عِنْدَ ذَبْحِ الذَّبَائِحِ فَقَال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ, وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ, وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[رواه مسلم]، وَقَدْ ذكر أَحدُ الْعُلَماءِ أَنَّ بعض الغَرْبِيِّين

أَسْلَموا لـمّا عَلِمُوا آدابَ الإِسْلامِ فِي الذَّبْحِ وَهَذَا يَدلُّ عَلى كَمالِ هَذَا الدِّيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَللهِ الحمْدُ وَالـمِنَّةُ.

وَقَالَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: «لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا»[متَّفقٌ عليْهِ]أَيْ لَا تتُّخذوا الحيوَانَ الحيَّ هَدفًا تَرمُونَهُ بِسِهامِكُمْ, لأَنَّ هَذَا مُنَافٍ للرَّحمةِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى المؤْمنِ أَنْ يتحلَّى بِها.

وَالنبيُّ صلى الله عليه و سلم كَانَ يَرْفَعُ الظُّلْمَ والقهرَ حَتَّى عَنِ الحيوَانِ وَيهتَمَّ بذَلِكَ أَشدَّ الاهْتِمام، فَقَدْ دَخلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بُستانًا لِرجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ, وَإِذْ فِي البُسْتَانِ جَمَلٌ, فَلَمَّا رَأى النبيَّ صلى الله عليه و سلم حَنَّ وذَرِفَتْ عَيْنَاهُ.

فَأَتَى إِليهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم, فَمسحَ عَلَى رَأْسِه، فَسكَن, ثُمَّ قَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَل؟»فَجَاءَ شَابٌّ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ! فَقالَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: «أَلَا تتقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه([٦])»[رَواهُ أَبُوداود وصحَّحه الألبَانيُّ].

وَللجَمادِ نَصيبٌ مِنَ الرَّحْمةِ المحمَّدِيةِ, فَقَدْ رَوَى البُخَارِيُّ أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم لمّا صُنِعَ لَه المنبرُ، صَاحَتِ النخْلَةُ الَّتِي كَانَ يخْطُب عَلَيْها صِياحَ الصَّبيِّ، فَنَزَلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم مِنْ عَلَى المنْبَرِ، فَضَمَّها إِلَيْهِ، فَجعلتْ تَنِنُّ أَنِينَ الصَّبيِّ الَّذي يُسَكَّن، فَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ».

كَان الحسَنُ إِذَا حَدَّثَ بِهذا الحدِيثِ بَكَى وَقَالَ: يَا مَعْشَر المسْلِمِيْنَ الخشبة تَحنُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم شوقًا إِلَى لِقَائِهِ، فَأَنْتُم أَحَقُّ أَنْ تَشتَاقُوا إِلَيْهِ([٧]).

٦ تُدْئِبُه: تُهْلِكُه بالعَمَلِ المتَواصِل.
٧ فتح الباري (٦٠٢/٦).

مِنْ فَضَائِلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم

اعْلَمْ أَنَّ فَضَائلَ نبيِّنا صلى الله عليه و سلم كَثِيرةٌ، وَمَحامِدَه صلى الله عليه و سلم غَزِيرَةٌ وَمِنْ ذَلكَ:

١- مَا مَدحَهُ اللهُ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الصِّفَاتِ...

قَالَ صلى الله عليه و سلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[رواه الطبراني].

٢- مَا مَدَحَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ بِأُمَّتِهوبالنَّاسِ جَمِيعًا كَمَا فِي قَولِه تَعَالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ [آل عمران: ١٥٩].

وَقَوْلِه صلى الله عليه و سلم: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[رَواهُ الحاكِمُ وصحَّحهُ الألبَانِيُّ].

٣- رِعَايةُ اللهِ لَهُ وَعِنايتُه بِه مُنْذُ وِلادَتِه: لقولِه تَعَالى: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ[الضحى: ٦ –٨].

٤- مَا جَاءَ فِي شَرْحِ صَدْرِه وَرَفْعِ ذِكْرِه صلى الله عليه و سلم، لقَوْلِهِ تَعَالى: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [الشرح: ١- ٤].

٥- كَوْنُه صلى الله عليه و سلم خَاتَمَ النَّبِيِّين: لقوله تعالى: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا[الأحزاب: ٤٠]،

وَقَوْلِه صلى الله عليه و سلم: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعْجَبُونَ مِنَ الْبُنْيَانِ وَيَقُولُونَ: أَلَا وَضَعْتَ هَاهُنَا لَبِنَةً، فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ؟ فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ»[مُتَّفَقٌ عليْهِ].

٦- تَفْضِيلُه صلى الله عليه و سلم عَلى الأنْبِيَاءِ: لِقَولِه صلى الله عليه و سلم: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ

طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً, وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»[رَواهُ مسْلِم].

٧ –أَنَّه صلى الله عليه و سلم أَتْقَى الخَلْقِ وَأَشْرَفُهُمْ: لقولِه صلى الله عليه و سلم: «أَنَا مُحمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ ابْنِ عَبْدِ المطَّلِب؛ إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الخَلْقَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ, فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً, ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا»[رواه أحمد وأبوداود وصححه الألباني].

٨ –أَنَّه صلى الله عليه و سلم صَاحِبُ الحوْضِ وَالشَّفَاعَةِ يَومَ القِيامَةِ: لِقَولِه صلى الله عليه و سلم: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُكُمْ, لِيُرفَعَ لِي رِجَالٌ مِنْكُمْ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ, اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: رَبِّ أَصْحَابِي! فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[رواه البخاري].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً قَدْ دَعَا بِهَا، فَاسْتُجِيبَتْ لَهُ, وَإِنِّي قَدْ اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ»[متَّفقٌ عليه].

٩ –وَهُوَ صلى الله عليه و سلم سَيِّدُ النَّاسِ يومَ القِيَامَةِ:لِقولِه صلى الله عليه و سلم: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ, وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ»[رواه أحمد والتِّرمذيُّ وصحَّحه الألبانِيُّ].

١٠ –وَهُوَ صلى الله عليه و سلم أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ يومَ القِيَامَةِ:لقولِه صلى الله عليه و سلم: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجنَّةِ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: أَقُومُ فَأَفْتَحُ لَكَ، فَلَمْ أَقُمْ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ، وَلَا أَقُومُ لِأَحَدٍ بَعْدَكَ»[رواهُ مسْلم].

١١ –وَهُوَ صلى الله عليه و سلم الْأُسْوَةُ الحَسَنَةُ لِكُلِّ إنسانٍ يَرْجُو اللهَ وَالفوزَ بِجَنَّتِه وَالنَّجاةَ مِنْ نَارِه، كَمَا قَالَ سُبْحَانه: لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا [الأحزاب: ١٢].

١٢ –وَهُو صلى الله عليه و سلم المنزَّهُ عَنِ النطْقِ بالهوَى, بَل إِنَّ كَلامَه المتعَلِّقَ بالدِّينِ والشَّريعةِ يُعدُّ مِنَ الوَحْيِ الَّذِي لاَ يأْتِيهِ البَاطِلُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ [النَّجْم: ٣ –٤].

وِلاَدَتُهُ, رَضَاعُه، صِيَانَةُ اللّهِ لَهُ

وُلِد النبيُّ صلى الله عليه و سلم فِي يوم الإثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبيعِ الْأَوَّلِ, قِيلَ فِي الثَّانِي مِنْهُ، وَقِيلَ فِي الثَّامِنِ, وَقِيلَ فِي الْعَاشِرِ، وَقِيلَ فِي الثَّانِي عَشَرَ. قَال ابْنُ كَثِيرٍ: وَالصَّحِيحُ أَنَّه وُلِدَ عَامَ الفِيلِ، وَقَدْ حَكَاهُ إبْراهِيمُ بْنُ المنْذِرِ شَيخُ البُخَارِيِّ وَخَليفَةُ بْنُ خَيَّاطٍ وَغيرُهُمَا إجْماعًا.

قَالَ عُلماءُ السِّيَرِ: لمّا حَمَلَتْ بِه آمِنةُ قَالَتْ: مَا وَجَدْتُ لَهُ ثِقلاً, فَلَمَّا ظَهرَ خَرجَ مَعهُ نُورٌ أَضَاءَ مَا بَيْنَ المشْرِقِ والمغْرِبِ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ وَأَبُو نُعَيْمٍ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَما وُلِدَ النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم عَقَّ عَبْدُ المطَّلِبِ عَنْهُ بِكَبْشٍ, وَسَمَّاه مُحَمَّدًا، فَقِيلَ لَه: يَا أَبَا الحَارِثِ! مَا حَملَكَ عَلَى أَنْ سَمَّيْتَه مُحَمَّدًا، وَلَم تُسَمِّه بِاسْمِ آبَائِه؟ قَال: أَرَدْتُ أَنْ يحْمَدَهُ اللهُ فِي السَّمَاءِ، وَيحْمَدَهُ النَّاسُ فِي الْأَرْضِ.

وَفَاةُ وَالِدِه:

وَتُوُفِّيَ أَبُوه صلى الله عليه و سلم وَهُو حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّه، وَقِيل: بَعْدَ وِلَادَتِه بِأَشْهُرٍ, وَالمشْهُورُ الْأَوَّلُ.

رَضَاعُهُ صلى الله عليه و سلم:

أَرْضَعَتْه ثُوَيْبَةُ مَوْلَاةُ أَبِي لَهبٍ أَيَّامًا, فَأَعْتَقَها أَبُو لَهبٍ فَرَحًا بِهذَا الغُلام، ثُمَّ اسْتُرْضِع لَه صلى الله عليه و سلم فِي بَنِي سَعْدٍ، فأَرْضَعَتْه حَليمةُ السَّعْدِيةُ، وَأَقَامَ عِنْدَهَا فِي بَنِي سَعْدٍ نَحْوًا مِنْ خَمْسِ سِنِينَ، وَقَدْ شُقَّ صَدْرُه هُنَاكَ، فَاسْتخرَجَ الملَائِكةُ قَلْبَه، وَغَسَلُوه, وَأَخْرَجُوا مِنْه حَظَّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ، ثُمَّ مَلأه اللهُ نُورًا وَحِكْمَةً وَرَأْفَةً وَرَحْمَةً, ثُم أَعَادُوه إِلَى مَكَانِه.

وَقَدْ خَشِيَتْ عَلَيْهِ حليمةُ بَعْدَ هَذِهِ الحادِثَةِ، فَردَّتْه إلى أُمِّه وَحدَّثَتْها بِما حَصَلَ، فَلَمْ يَرُعْهَا ذَلك.

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: كَانَ هَذا التَّقْدِيسُ وَالتَّطْهِيرُ مَرَّتَيْنِ!

الْأولَى: فِي الطُّفُولَةِ؛ لِيُنَقَّى قَلْبُه مِنْ مَغْمَزِ الشَّيطانِ.

والثَّانِيةُ: عِنْدَمَا أَرادَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلى الحضْرَةِ القُدْسِيَّةِ, لِيُصَلِّيَ بِمَلَائِكَةِ السَّمواتِ، فَقُدِّسَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا, وَمُلِئَ قَلْبُه حِكْمَةً وَإِيْمَانًا.

وَفَاةُ أُمِّه صلى الله عليه و سلم:

لمّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم سِتَّ سِنينَ، خَرَجَتْ بِه أمُّه إِلى أَخْوالِ جَدِّه بَنِي عُدَيِّ بْنِ النَّجَّارِ بالمدينةِ تَزُورهُمْ, وَمَعَها أُمُّ أَيمنَ, فَأَقامَتْ عِنْدَهُم شَهْرًا، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ بِالأَبْوَاءِ وَهِي رَاجِعَةٌ إِلَى مَكَّةَ.

وَلمّا مرَّ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم بِالْأَبْوَاءِ وَهُو ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ عَامَ الفَتْحِ، اسْتَأْذَنَ رَبَّه فِي زِيارَةِ قَبْرِ أمِّه فَأَذِنَ لَهُ، فَبَكَى, وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَه وَقَالَ: «زُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّها تُذَكِّرُ الموْتَ»[رواه مسلم].

فَلَمَّا مَاتَتْ أُمُّه، حَضنَتْه أُمُّ أَيمَنَ, وَهِيَ مَوْلَاتُه وَرِثَها مِنْ أَبيه، وَكَفَّله جَدُّه عَبْدُ المطَّلِبِ, فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم مِنَ الْعُمْرِ ثَمَانِيَ سِنينَ تُوفِّيَ جَدُّه، وَأَوْصَى به إِلى عَمِّه أَبي طَالبٍ، فَكَفَّله، وَحَاطَه أَتَمَّ حِيَاطةٍ, وَنَصرَهُ وَآزَرهُ حِينَ بَعَثَهُ اللهُ أَعَزَّ نَصْرٍ وَأَتَمَّ مُؤَازَرَةٍ, مَع أَنَّه اسْتَمَرَّ عَلَى شِرْكِه إِلى أَنْ ماتَ فَخَفَّف اللهُ بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِه، كَمَا صَحَّ الحَدِيثُ بِذَلِكَ.

صِيَانَةُ اللهِ تَعَالَى لَهُ مِنْ دَنَسِ الجَاهِلِيّةِ:

كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ صَانَ نَبِيَّه صلى الله عليه و سلم وَحَمَاهُ مِنْ صِغَرِه، وَطَهَّرَه مِنْ دَنَسِ الجاهِلِيَّةِ، فَقَدْ بَغَّضَ إِليهِ الأَصْنَامَ, فَلَمْ يَعْبُدْ صَنَمًا وَلَمْ يُعَظِّمْ صَنمًا, وَلَمْ يَشْرَبْ خَمرًا, وَلَمْ يُشَارِكْ شَبابَ قُرَيْشٍ فِي فِسْقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، بَلْ كَانَ صلى الله عليه و سلم مُبَرَّأً مِن كُلِّ عَيبٍ, وَقَدْ مُنِح كُلَّ خُلُقٍ جَميلٍ وَفِعلٍ نَبيل، حَتَّى أَنَّه لَمْ يكنْ يُعْرَفُ بَين قَوْمِه إِلَّا بِالْأَمِين لِما شَاهَدُوه مِنْ طَهَارَتِه وَصِدْقِ حَدِيثِه وَكَانُوا يَرْضَوْنَ بِحُكْمِه وَيَنْزِلُونَ عَنْ رَأْيِه، وَقَدْ تَجلَّى ذَلِكَ فِي قِصَّةِ وَضْعِ الحجَرِ الْأَسْوَدِ فِي مَكانِه، فَقَدْ رَضَوْا بِما أَشَارَ إِليهِ مِنْ رَأْيٍ, حَيثُ أَمرَ بِثَوبٍ, وَوُضِعَ الحجَرُ فِي وَسَطِه، وَأَمرَ كُلَّ قَبيلَةٍ أَنْ تَرفَع بِجَانِبٍ مِن جَوانِبِ الثَّوْبِ, ثُمَّ أَخَذَ الحجَرَ بِنَفْسِه وَوَضعَهُ فِي مَكَانِه، فَهَدأَتْ بِذَلِك النُّفُوسُ، وَانْطَفأَتْ نِيرَانُ الفِتْنَةِ الَّتِي كانتْ تُنْذِرُ بِحرْبٍ بينَ القَبَائِلِ.

زَوَاجُـــــــهُ صلى الله عليه و سلم

تَزوَّج النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم خَدِيجةَ, وَلَه خمسٌ وَعِشْرُون سَنَةً، وَكَانَتْ هِيَ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهَا، وَكَانَ صلى الله عليه و سلم قَدْ خَرجَ إِلَى الشَّام فِي تِجَارَةٍ لَها مَعَ غُلَامِها مَيْسَرَةَ، فَرَأى مَيْسَرةُ مَا بَهَره مِنْ شأنِه، وَمَا كَانَ يَتحلَّى بِهِ مِن صِدْقٍ وَأَمَانةٍ, فَلَمَّا رَجَعَ أَخْبَر سَيِّدَتَهُ بِمَا رَأى, فَرَغِبَتْ فِي الزَّوَاجِ مِنْه، فَتزوَّجَها.

وَمَاتَتْ خَدِيجةُ رَضِي اللهُ عَنْهَا قَبْل الهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، وَقَدْ مَكَثَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم مَعَها خَمسًا وَعِشرينَ سَنَةً لَم يتزوَّجْ غَيْرَها حَتَّى مَاتتْ وَهِي فِي الخَامِسَةِ وَالسِّتِّينَ مِنْ عُمْرِها، وَكَانَ عُمْرُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم حَوالَيَ خَمْسِينَ عَامًا. ثُمَّ تزوَّجَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بَعدَها عِدَّةَ نِسْوةٍ لحِكَمٍ كَثيرةٍ وَمقاصِدَ جَليلةٍ, وَهَذَا يُكذِّبُ مَا ادَّعاهُ بَعضُ المسْتَشْرِقينَ وَغيرِهِمْ مِنْ أَهلِ العِنَادِ وَالتَّكْذِيبِ مِنْ أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم كَانَ رَجُلاً شَهْوانيًا يَبْحَثُ عَنِ المتْعَةِ, إِذْ كَيفَ يَكُونُ كَذلِك، وَقَدْ مَكَثَ مَعَ امْرَأةٍ وَاحِدةٍ –تَكبرُه بِخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً –خمسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً لَمْ يتزوَّجْ غَيرَها حَتَّى ماتتْ، وَحتَّى ذَهب عَنْه سِنُّ الشَّباب وَوُفورُ الشَّهْوةِ, فَهَلْ كَانتِ الشَّهْوةُ خَامدَةً طُوالَ هَذا الْعُمْرِ المدِيدِ, ثُمَّ ظهرَتْ فَجْأَةً بَعدَ أَنْ وَصلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم إِلى الخَمْسِينَ مِنْ عُمْرِه؟، هَذا القولُ لَا يتفوَّهُ بِه عَاقِلٌ.

وَقَدْ سَخِر مِنْ هَذا القولِ كَثِيرٌ مِنْ عُلَماءِ وَمُفكِّري الغَرْبِ أَنْفُسِهِمْ. قَالتْ البَاحِثة الإِيطَالِيَّةُ الدُّكْتُورَةُ: «لُورَا فِيشِيَا فَاغْلِيرِي»: «إِنَّ مُحَمَّدًا طُوالَ سَنَوَاتِ الشَّبَابِ الَّتي تَكُونُ فِيها الغَرِيزةُ الجنسيَّةُ أَقْوى مَا تكُونُ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّه عَاشَ فِي مُجتَمعٍ كَمُجْتَمعِ العَرَبِ –قَبْلَ الإِسْلَامِ –حَيْثُ كَان الزَّوَاجُ كَمُؤَسَّسةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَفْقُودًا أَوْ يَكَادُ, وَحيثُ كَانَ تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ هُو القَاعِدَةَ, وَحيثُ كَانَ الطَّلَاقُ سَهْلاً إِلَى أَبْعدِ الحُدُودِ، لَم يتزوَّجْ إِلَّا مِنَ امْرأةٍ وَاحِدَةٍ لَيسَ غَيْرَ، هِي خَدِيجَةُ الَّتِي كَانَ سِنُّهَا أَعْلى مِن سِنِّه بِكَثِيرٍ, وَأَنَّه ظَلَّ طُوالَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً زَوْجَها المخْلِصَ المحِبَّ, وَلم يتزوَّجْ مَرَّةً ثَانِيةً وَأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا بَعدَ أَنْ تُوُفِّيتْ خَدِيجةُ، وَإِلَّا بعدَ أَنْ بَلَغَ الخَمْسِينَ مِنْ عُمْرِه.

لَقَدْ كَان لِكُلِّ زَواجٍ مِنْ زَوَاجَاتِه هَذِه سَببٌ اجْتِمَاعِيٌّ أَوْ سِياسيٌّ, ذَلِك بأَنَّه قَصدَ مِنْ خِلالِ النِّسْوَةِ اللَّاتِي تَزوَّجَهُنَّ إِلى تَكْرِيمِ النِّسْوةِ المتَّصِفَاتِ بالتَّقْوى، أَوْ إِلى إِنْشَاءِ عِلَاقَاتِ نَسبٍ مَع

بَعْضِ العَشَائِرِ والقَبَائِلِ الأُخْرَى؛ ابْتِغَاءَ شَقِّ طريقٍ جَديدٍ لانْتِشارِ الإِسْلَامِ.

وَبِاسْتِثْنَاءِ عَائِشةَ –رَضِي اللهُ عَنْهَا –لَيْسَ غَيْرَ، تَزوَّجَ محمدٌ صلى الله عليه و سلم مِن نِسْوةٍ لَم يكُنَّ عَذَارَى، وَلا شَابَّاتٍ، فَهَلْ كَانَ ذَلِكَ شَهوانِيَّةً؟

لَقَدْ كَان رَجُلاً لَا إِلهًا، وَقَدْ تَكُونُ الرَّغبةُ فِي الوَلَدِ هِي الَّتِي دَفعَتْه أَيضًا إِلى الزَّوَاجِ مِنْ جَدِيدٍ، لأنَّ الأولَاد الَّذِين أَنجبتْهُم خَدِيجةُ رَضِي اللهُ عَنْهَا لَه كَانُوا قَدْ مَاتُوا.

وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَكونَ لَه مَوَارِدُ كَثِيرةٌ، أَخَذَ صلى الله عليه و سلم عَلى عَاتِقِه النُّهوضَ بِأَعْبَاءِ أُسْرَةٍ ضَخْمَةٍ, وَلكِنَّه الْتزمَ دَائِمًا سَبِيلَ المسَاوَاةِ الْكَامِلَة نَحوهُنَّ جَمِيعًا, وَلَمْ يَلْجَأ قَطُّ إِلى اصْطِنَاعِ حقِّ التَّفَارُق مَع أيٍّ مِنْهُنَّ.

لَقَدْ تَصرَّفَ صلى الله عليه و سلم مُتَأَسِّيًا بِسنَّةِ الأَنْبياءِ القُدَامَى مِثْل مُوسَى وَغَيْرِه، الَّذِين يبدُو أَنَّ أَحدًا مِنَ النَّاسِ لم يَعْتَرِضْ عَلى زَوَاجِهِمُ المتعَدِّد، فَهَلْ يكونُ مَردُّ ذَلِكَ إِلى أَنَّنا نَجْهَلُ تَفَاصِيلَ حَياتِهِمُ اليوْمِيَّةِ، عَلى حِين نَعْرِفُ كلَّ شَيْءٍ عَنْ حَياةِ مُحمَّدٍ صلى الله عليه و سلم العَائِلِيَّةِ؟![٨]»».

زَوْجَاتُهُ صلى الله عليه و سلم:

تَزوَّجَ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ بَعْدَ وَفَاةِ خَدِيجةَ، ثُمَّ تَزَوَّجَ عَائِشةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِي اللهُ عَنْهَا, وَلَمْ يَتزوَّجْ بِكْرًا غَيْرَها, ثُمَّ تزوَّجَ حَفْصةَ بِنْتَ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ رَضِي اللهُ عَنْها، ثُمَّ تزوَّجَ زَيْنَبَ بِنْتَ خُزَيْمَةَ بْنِ الحارِثِ، وَتَزوَّج أُمَّ سَلَمَةَ وَاسْمُها هِنْدُ بِنْتُ أُميَّةَ, وَتَزَوَّجَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، وَتَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الحَارِثِ, وَأُمَّ حَبِيبةَ, وَتَزَوَّجَ إِثْرَ فَتْحِ خَيْبَر صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ، ثُمَّ مَيْمُونَةَ بِنْتَ الحَارِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَهِيَ آخِرُ مَنْ تَزوَّجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم.

٨ قَالُوا عَنِ الإِسْلَامِ – للدكتور عماد الدين خليل – ص(١٢٠, ١٢١). نقلاً عن كتابها «دِفَاعٌ عَنِ الإِسْلَامِ».

النّبِيّ والمرْأَةُ (١)

لَقدْ دَأبَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ ظَلمَ المرْأَةَ وَقَهرَها، وَمَنعَها حُقُوقَها، وَجعَلَها خَادِمَةً لِلرَّجُلِ وَوَسِيلَةً لمتْعَتِهِ.

غَيْرَ أَنَّ هذا الزَّيْفَ يدْحَضُه مَا أُثِر عَنِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم فِي تَكْرِيم المرْأَةِ وَرَفْع شَأْنِها، وَالْأَخْذِ بِمشورَتِها, والرِّفْقِ بِهَا, وَإِنْصَافِها فِي كَافَّة المواقِفِ، وَإِعْطَائِهَا كَامِلَ حُقُوقِها مِمَّا لَمْ تَكُنْ تَحلُمُ بِهِ قَبْلَ ذَلك.

فَقَدْ كَان العَرَبيُّ –بِطبْعِه –قَبْلَ الْإِسْلَام يَكْره البَنَاتِ، وَيعتَبرُهنَّ عَارًا, حَتَّى أَنَّ بَعضَ الْعَرَبِ الجاهلِيِّين اشْتُهِر بِدفْنِ الْإِنَاثِ وَهُنَّ أَحْياءٌ, وَقَدْ صَوَّر القُرْآنُ ذَلِكَ بقولِه: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨)يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ [النَّحْل: ٥٨ –٥٩].

وَكانَتِ المرْأَةُ فِي الجاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ عَنْهَا زَوْجُها، وَرِثَها أَبْنَاؤُه وَأَقارِبُه، فَإِنْ شَاؤُوا زَوَّجُوهَا مِنْ أَحَدِهِمْ, وَإِنْ شَاؤُوا حَرَمُوهَا مِنَ الزَّوَاجِ وَحَبسُوهَا حَتَّى الموْتِ, فَأَبْطَل الْإِسْلامُ ذَلِكَ كُلَّه, بِمَا شَرَّعَه مِنْ أَحْكَامٍ عَادِلَةٍ تَضْمَنُ حُقُوق المرْأَةِ وَالرَّجُلِ عَلى حَدٍّ سَواء.

فقدْ أَخْبر النبيُّ صلى الله عليه و سلم عَنْ مُسَاوَاةِ المرْأَةِ للرَّجُلِ فِي الإِنْسَانِيَّة, فَقَال عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «إِنَّما النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»[رَواهُ أَحْمدُ وأَبوداودَ والتِّرْمِذِيُّ].

فَلَيْسَ هُنَاكَ –فِي الْإِسْلَام –صِرَاعٌ بَينَ جِنْسِ الرَّجُلِ وَجِنْسِ المرْأَةِ كَمَا يُصَوِّرُ أَعْداءُ الْإِسْلَامِ، بَلْ هِيَ الْأُخُوَّةُ وَالتَّكَامُل بَيْن الجنْسَيْنِ.

وَقَدْ قَرَّرَ القُرْآنُ الكريمُ قَضِيَّةَ المسَاوَاةِ فِي الْإِيمَانِ وَالعَمَلِ والجزَاءِ فَقَالَ تَعَالَى: إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [الْأَحْزَاب: ٣٥].

وَقَالَ تَعالى: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ [غافر: ٤٠].

وَأَخْبَر النبيُّ صلى الله عليه و سلم بمحبَّته للمَرْأَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[رَواهُ أَحْمدُ والنسائيُّ وصحَّحه الألبانيُّ].

فَإِذَا كَان النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم يُحِبُّ النِّسَاءَ فَكيفَ يَظْلِمُهنَّ؟ وَكيْفَ يَحْقِرُهُنَّ؟ وَكَيْفَ يَقْهَرُهُنَّ؟

وَكَمَا أبْطلَ اللهُ تَعَالَى عَادةَ كَرَاهِيةِ البَنَاتِ وَدَفْنِهنَّ أَحْيَاء, فَقَدْ أَبْطَلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم تِلك العَادَةَ القَبيحَةَ، وَرَغَّبَ فِي تَرْبيةِ البَنَاتِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ, فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ–وَضَمَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ –»[رواه مسلم] وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى عُلُوِّ مَنْزِلَتِه, وَقُرْبِه مِنَ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِرِعَايتِه بَنَاتِه وَحِفَاظِه عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَصِلْنَ إِلَى سِنِّ البُلُوغِ وَالتَّكْلِيفِ.

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ, أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ, أَوْ بِنْتَانِ, أَوْ أُخْتَانِ, فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ, وَاتَّقَى اللهَ فِيهِنَّ, فَلَهُ الجَنَّةُ»[رَواهُ الترمِذيُّ وصحَّحه الألبانيُّ].

وَلَقَدْ حَرِصَ النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم عَلَى تَعْلِيمِ المرْأَةِ فَجَعَلَ لَهنَّ يَوْمًا يجْتَمِعنَ فِيه، فَيأتِيهنَّ وَيُعَلِّمُهنَّ مِمَّا عَلَّمَه اللهُ. [رواه مسلمٌ].

وَلَمْ يَجْعَلِ النبيُّ صلى الله عليه و سلم المرْأَةَ حَبِيسةَ الْبيتِ كَما يَزْعُمونَ, بَلْ أباحَ لَها الخُرُوجَ مِنَ البَيْتِ لِقضَاءِ حَوَائِجِهَا وَزِيَارَةِ أَقَارِبِها, وَعِيادَةِ المرْضَى, وَأَبَاحَ لَها أَنْ تَبيعَ وَتَشْتَرِيَ فِي السُّوقِ مَع الْتِزَامِها بِحَيائِها وَحِجَابِها الشَّرْعِيِّ. وَكَذَلِكَ أباحَ لَها الخُروجَ إِلَى المسَاجِد، بَلْ نَهى عَنْ مَنْعِها فَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ المسَاجِدَ»[رواه أحمد وأبوداود].

وَأَوْصَى صلى الله عليه و سلم بِالْمَرْأَةِ فَقَالَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[متَّفقٌ عليْهِ]وَهَذَا يَقْتَضِي حُسْنَ عِشْرَتِهنَّ, وَاحترَامَ حُقُوقِهنَّ, وَرِعايةِ مَشَاعِرِهنَّ وَعدمِ إِيذائِهنَّ بِأيِّ نَوْعٍ مِنَ الأَذَى.

النّبيّ والمرْأَةُ (٢)

لَقَدْ رَغَّبَ النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم الأزواجَ فِي النَّفقةِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَقَالَ عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُهُ فِي فِيّ امْرَأَتِكَ»[متفقٌ عليْهِ].

بَل إنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم جَعل النَّفقةَ عَلى الْأُسْرةِ مِن أَفْضَل نَفقَاتِ الرَّجُلِ، فَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «أَفْضَلُ دِينَارٍ: دِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى عِيَالِهِ»[رواه مسلم].
وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَقَى امْرَأَتَهُ مِنَ الْمَاءِ أُجِرَ»[رواه أحمدُ وحسَّنه الألبانيُّ].

وَقَدْ سَمِعَ هَذَا الحديثَ الْعِرباضُ بْنُ سَارِيةَ رضي الله عنه، فَسارَعَ إِلى الماءِ، ثُمَّ أَتَى زَوْجتَهُ فَسقَاهَا، وَحَدَّثَها بِمَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم.

هَكَذَا عَلَّم النبيُّ صلى الله عليه و سلم أَصْحَابَه حُسنَ عِشْرَةِ النِّسَاءِ وَالعطْفَ عَلَيْهِنَّ وَالشَّفقةَ بِهِنَّ وَإِيصالَ أَنْواعِ الخيرِ لهنَّ والنَّفقةَ عليهِنَّ بالمعْروفِ.

وَبَيَّنَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم أَنَّ حُسنَ عِشْرَةِ النِّساءِ دَليلٌ عَلى نُبْلِ نَفْسِ الرَّجُلِ وَكَرِيمِ طِباعِه، فَقال عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»[رواه أحمد والترمذي],
وَنَهى النبيُّ صلى الله عليه و سلم عن بُغْضِ الرَّجلِ زوجتَهُ، فقال عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً –أي لا يبغَضُها –إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»[رَواهُ مُسْلم].

وَهكذا كَانَ النبي صلى الله عليه و سلم يأمُرُ الرِّجالَ بالبحْثِ عَنِ الْإيجَابِيَّاتِ وَالسُّلوكِيَّاتِ الحميدَةِ فِي المرْأَةِ، وَالتَّغافُلِ عَنِ الهفَواتِ وَالسَّلبِيَّات، لأَنَّ البحْثَ فِي السُّلوكِ السَّلْبِيِّ وَالوقوفَ عِنْدَه طَويلاً يُؤدِّي إلى النُّفورِ وَالبُغْضِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

وَنَهَى النبيُّ صلى الله عليه و سلم عَنْ ضَربِ النِّساءِ، فقالِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللهِ»[رَوَاهُ أَبُو دَاودَ].

وَتوعَّدَ الَّذِينَ يُؤذُونَ النِّساءَ فَقَالَ صلى الله عليه و سلم :»اللهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالمرْأَةِ»[رَواه أَحْمدُ وابْن مَاجهْ]والمعْنَى أنَّ من ظَلَم هَذَين الصِّنْفَيْنِ لَا يُحلّه اللهُ، بَل هُو مُعرَّضٌ للحَرَجِ والعُقوبَةِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَة.

وَنَهى النبيُّ صلى الله عليه و سلم الرِّجالَ عَن إِفْشَاءِ أَسْرَارِ الزَّوجَاتِ, وَكذلكَ الزَّوْجَاتُ مَنهيَّاتٌ عَن إفشاءِ أَسْرَارِ أَزواجِهنَّ فَقَال عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»[رَواهُ مُسْلِم].

وَمِنْ تكْرِيم النبيِّ صلى الله عليه و سلم للمرْأَةِ أَنَّه نَهى الأَزْواجَ عَنْ سُوء الظَّنِّ بالزوْجَات, وَتلمُّس عَثَراتِهنَّ، فَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلاً؛ يَتَخَوَّنُهُمْ، أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ»[مُتفق عليه].

أَمَّا سُلوكُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم مَعَ أَزْوَاجِه، فَقَدْ كَان فِي غَايةِ الرِّقَّةِ واللُّطف.
فَعنِ الأَسْوَدِ قَال: سَألتُ عَائشةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا: مَا كَان النبيُّ صلى الله عليه و سلم يَصنَعُ فِي أهلِه؟ قَالَتْ: كَانَ فِي مِهنةِ أَهلِه –أَيْ يُساعِدُها فِي مِهنَتِها –فَإِذَا حَضرتِ الصَّلاةُ, قَامَ إِلى الصَّلاةِ [رواه البخاري].

وَكَانَ صلى الله عليه و سلم يَترضَّى أَزْواجَه، وَيُلاطِفُهنَّ بالحديثِ الحُلْوِ الرَّقْراقِ, وَالكلماتِ العَذْبةِ الحانِية.
وَمِنْ ذَلك قولُه صلى الله عليه و سلم لِعائشةَ رَضي اللهُ عَنْها: «إِنِّي لَأَعْرِفُ غَضَبَكِ وَرِضَاكِ»قَالَتْ: كَيف تَعرِفُ ذَلك يَا رَسولَ اللهِ؟ قَالَ: «إِنَّكِ إِذَا كُنْتِ رَاضِيَةً قُلْتِ: بَلَى وَرَبِّ مُحَمَّدٍ, وَإِنْ كُنْتِ سَاخِطَةً قُلْتِ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ»فَقَالَتْ: أَجَلْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ. [متفقٌ عليه]. أَيْ إِنَّ حُبَّكَ فِي قَلْبِي ثَابِتٌ لَا يَتَغَيَّر!
وَلَمْ يَنْسَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم زَوجَتَهُ خَدِيجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حَتَّى بَعدَ وَفَاتِهَا، فَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم إِذا أُتيَ بالهدِيَّةِ قَال: «اذْهَبُوا بِهَا إِلَى فُلَانَةٍ، فَإِنَّها كَانَتْ صَدِيقَةً لِخَدِيجَةَ»[رَواهُ الطَّبرانيُّ]. فَهَذَا هُو احْتِرامُ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم للمرْأَةِ, فأينَ أَنْتُمْ مِن ذلكِ يَا دُعَاة تحْرِيرِ المرْأَةِ؟!

مَبْعَثُه وَدَعْوَتُه قَوْمَهُ

بُعث صلى الله عليه و سلم فِي الأَرْبَعينَ مِن عُمْرِه، وَهُوَ سِنُّ الكَمالِ، فنَزل عَلَيْهِ المَلَكُ بِحِرَاءٍ يَوم الإثْنين لسبعَ عَشرةَ لَيلةً خَلَتْ مِنْ رَمضانَ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عليهِ الوحيُ اشْتَدَّ ذَلك عَلَيْهِ، وَتَغَيَّر وَجهُه، وَعرِق جَبينُه.

فَلمَّا نَزل عليه المَلَكُ قَالَ لَهُ: اقْرأْ. قَال:»لَسْتُ بِقَارِئٍ». فَغَطَّهُ المَلَكُ حَتَّى بلغ مِنه الجهدُ، ثُمَّ قال له: اقرأ. فقال: «لَسْتُ بِقارِئٍ», ثلاثًا. ثُمَّ قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ –٥].

فَرَجع رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم إلى خَدِيجَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا يرْتجِفُ، وَأَخْبرَها بِمَا رَأى, فثبَّتَتْه وَقالتْ لَهُ: أَبْشِرْ, فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبدًا، إِنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتصْدقُ الحدِيث، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المعْدُوْمَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ, وَتُعِينُ عَلى نَوائِب الدَّهْر.

ثُمَّ انطلقتْ بِه خديجةُ حَتَّى أتتْ وَرقةَ بْنَ نَوفَل، وَهُو ابْنُ عَمِّ خَدِيجةَ، وَكَانَ امْرأً تَنصَّر فِي الجاهِلِيَّةِ، وَكان يَكْتُب الكِتَابَ العِبْرانيَّ، فَكتبَ مِنَ الإِنْجِيْلِ بِالعربيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أن يكتُبَ, وَكَانَ شَيْخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فَقَالَتْ لَه خديجَةُ: يَا ابْن عَمِّ! اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيك. فَقَال لَهُ وَرقةُ: يَا ابْنَ أَخِي! مَاذَا تَرى؟ فَأَخْبَره صلى الله عليه و سلم خَبرَ مَا رَأى. فَقالَ لَهُ وَرقةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أنزَلَه اللهُ عَلَى مُوسى، يَا لَيْتَنِي فِيها جَذَعًا, لَيتني أَكُون حيًّا إِذْ يُخْرِجُك قَومُك. فَقالَ صلى الله عليه و سلم: «أَوَ مُخْرِجيَّ هُمْ؟»قَالَ: نعمْ؛ لَم يأتِ رَجلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئتَ بِه إلا عُودِي، وَإِن يُدرِكْنِي يَومُك أَنصُرْك نَصرًا مؤزَّرًا، ثُمَّ لم يلبثْ وَرقةُ أَن تُوُفِّي.

ثُمَّ فَتر الوحْيُ، فَمَكَثَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم مَا شاءَ اللهُ أَن يمكُثَ لَا يَرَى شَيئًا, فَاغتمَّ لذلِكَ، واشْتاقَ إِلى نُزول الوحْي.

ثُم تبدَّى لهُ المَلَكُ بَين السَّماءِ وَالْأَرْضِ عَلَى كُرسِيٍّ، فَثبَّته، وبشَّرهُ بأَنَّه رسولُ اللهِ حَقًّا، فلمَّا رآهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم خَاف مِنْه، وَذَهبَ إِلى خَدِيجةَ وَقَال: «زَمِّلُوني,

دَثِّرُونِي»فأنزَل اللهُ عَليهِ: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ (١)قُمۡ فَأَنذِرۡ (٢)وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ (٣)وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ [المدَّثِّرْ: ١ – ٤].

فَأمرَهُ اللهُ تَعالى فِي هَذِه الآياتِ أَنْ يُنْذِر قَوْمَه، وَيدعُوَهمْ إلى اللهِ، وَيُعظِّمَ اللهَ تبارك وَتَعالى، ويطهِّر نَفسَه مِنَ المعَاصِي وَالآثام.

فشمَّر النبيُّ عَنْ سَاقِ التكْلِيف, وَعَلِمَ أَنَّه رَسولُ اللهِ حَقًّا، وَقَام فِي طَاعةِ اللهِ أَتَمَّ قِيام، يَدْعو إلى اللهِ تَعالَى الكبيرَ وَالصَّغِير, وَالحرَّ والعبْدَ، والرِّجالَ والنِّساء، والأسودَ والأحمرَ, فاسْتجابَ لَه مِنْ كُلِّ قبيلةٍ أُناسٌ فَمَنْ أَرَادَ اللهُ فَوزَهُمْ وَنَجاتَهمْ فِي الدُّنيَا وَالآخِرةِ، فَدخلُوا فِي الْإِسلام عَلى نُورٍ وَبَصيرَةٍ, فَأخذَهُمْ سُفهاءُ مَكَّةَ بِالأذَى وَالعُقوبةِ, وَصَانَ اللهُ رَسولَهُ صلى الله عليه و سلم بعَمِّه أبي طَالبٍ, فَقَدْ كَان شَرِيفًا مُطاعًا فيهم، نَبِيلاً بَيْنَهُم، لَا يتجَاسرُون عَلى مُفَاجَأتِه بشيءٍ فِي أمرِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم، لِمَا يَعلمُون مِن مَحبَّتِه لَهُ، كَما كَان على دينِهم وَهذا ما جَعَلَهُم يَصْبِرُونَ عَلَيْهِ وَلَا يُجَاهِرُونه بالعَدَاوةِ.

قَالَ ابْنُ الجوزيِّ: وَبَقِيَ ثَلَاثَ سِنينَ يَتسَتَّر بالدَّعْوةِ، ثُمَّ نزل عَليه وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ[الشعراء: ٢١٤].

خَرَجَ رَسُول اللهِ حَتَّى صَعِدَ الصَّفا، فَهتفَ: «يَا صَبَاحَاهُ»فَقَالُوا: مَنْ هذا الَّذي يهتِفُ؟ قَالوا: مُحمَّد! فاجْتمعُوا إليه فقال: «يَا بَنِي فُلان! يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! يَا بَنِي عَبْدِ المطَّلِبِ»فَاجْتمعُوا إليه فَقال: «أَرَأَيْتُم لَوْ أَخبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»قَالوا: ما جرَّبْنا عَليك كَذِبًا. قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»فَقَالَ عمُّه أبُو لَهب: تَبًّا لك! أما جَمَعْتَنَا إلَّا لهذا؟! ثُمَّ قَامَ، فنزَل قولُه تَعالى: تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ إلى آخرِ السُّورَةِ [متفقٌ عليْهِ].

صَبْرُه عَلَى الأَذَى

لقدْ خَاض النبيُّ صلى الله عليه و سلم غِمَارَ الدَّعوةِ, وَسَلك مَفَاوِزَ النَّصيحةِ, وَاقتَحم مَيادِينَ الْإِرشَادِ، وَدَعَا النَّاسَ إلى عِبادَةِ اللهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَترك مَا كَانَ عَلَيْهِ آباؤهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَعِبادَةِ الْأَوْثَانِ, وَدُعاءِ الْأَصْنَامِ، وَأَمرَهُمْ بِتَرْكِ المنْكَراتِ, وَهَجْرِ المحَرَّمَاتِ, فَآمَنَ بِه القليلُ, وَكذَّبَه الكثيرُ.

وَعَلَى الرُّغم مِنْ أَنَّ النبيَّ قَد صَانهُ اللهُ وَحماه بعمِّه أبي طَالب، إلَّا أَنَّه أُوذِي وَحُوصِر وَضُيِّق عَلَيْهِ أَشدَّ التضْيِيقِ، فَفي السَّنةِ السَّابِعَةِ مِنَ النُّبوةِ دَخَلَ النبيُّ الشِّعبَ مَع عَمِّه أَبي طالب وَبَنِي هَاشِم وَبَنِي المطَّلب مُسْلِمِهِمْ وَكَافِرِهِمْ مَا عَدا أَبَا لَهب، فَلَمَّا دَخلُوا الشِّعبَ أَجمعَتْ قريشٌ عَلى حِصارِهِمْ, وَأَلَّا يَقْبَلوا لَهمْ صُلْحًا أبدًا، وَقَطعُوا عَنْهم الْأسواقَ، وَمنَعُوهمُ الرِّزْقَ، إلَّا أَنْ يُسلِّمُوا رَسولَ اللهِ ليقتُلُوه, وكَتبُوا بِذلِك صحِيفةً تتضمَّن هذا الظُّلمَ والجَوْرَ، وعلَّقُوها فِي جَوْفِ الكعْبةِ. وَبعدَ دُخُولِ النبيِّ الشِّعبَ أَمر النبيُّ أصحابَه بالهجْرةِ إلَى الحبَشةِ, نَظرًا لاشْتِدَاد الْأَذى عَلَيهِمْ –وَهِيَ الهجرةُ الثَّانِيةُ –فَهَاجَر نَحوُ ثَلاثةٍ وَثمانِينَ رَجُلاً، وَثَمانيَ عَشْرَةَ امْرأةً, وَتوجَّه إليهِمْ مُسْلِمو أَهْلِ اليَمَنِ.

وَمَكَثَ فِي الشِّعبِ قَرِيبًا مِنْ ثَلاثِ سِنينَ، فِي شِدَّةِ الجهْدِ وَالجُوعِ، لَا يَصِلُ إليهِمْ شيءٌ إلَّا سرًّا، حَتَّى أنهُمْ أَكلُوا وَرَقَ الشَّجَرِ، وَاستَمرَّ الحالُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى السَّنةِ العَاشِرَةِ, حَيثُ قَام رِجالٌ مِنْ قُرَيْشٍ بنقْضِ الصَّحِيفةِ, فَخَرجَ رَسولُ اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الشِّعْبِ.

وَفِي نفْسِ السَّنةِ تُوفِّيتْ خَدِيجةُ زَوجُ النبيِّ ، وبعدَ وَفَاتِها بنحْوِ شَهْرَيْنِ تُوفِّي عَمُّه أَبو طالبٍ, فَلَمَّا مَات نالتْ قُريشٌ مِنَ الرَّسولِ مَا لم تقْدِرْ عَلى نَيْلِهِ فِي حَيَاتِه، وَاشتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ, وَتَعُصُّبُهم عَلَيْهِ([٩]).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّه كَان يُصلِّي عِنْدَ البيْتِ وَأَبُو جَهلٍ وَأَصحابٌ لَهُ جُلوسٌ، وَقد نُحرتْ جَزُورٌ بالأمْس، فَقَالَ أَبُو جهلٍ: أَيُّكُمْ يقومُ إلَى سَلا جَزُورِ بَنِي فُلانٍ فيأخُذَهُ، فَيَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِ محمَّدٍ إذا سجد؟ فانْبعثَ أَشقى القَوْمِ، فأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجد النبيُّ وَضعهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَاسْتَضْحَكُوا, وَجعلَ

٩ انظر لباب الخيار في سيرة المختار ص(٣٧ – ٤٠).

بَعضُهُمْ يَميلُ عَلَى بَعْضٍ. فَجاءتْ فَاطِمَةُ فَطرَحَتْه عَنه، ثم أقبلتْ تَشتِمُهمْ. فَلَمَّا قَضَى النبيُّ صَلاتَهُ رَفع صَوْتَه، ثُمَّ دعا عَليهِمْ فَقال: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ»ثَلاثَ مَرَّاتٍ. فلمَّا سَمِعُوا صَوْته ذَهَبَ عنهُمُ الضَّحِكُ، وَخافُوا دَعْوَتَه، ثُمَّ قالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ ابْنِ هِشَام، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبيعةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبيعَةَ, وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ». قَالَ ابْنُ مَسْعودٍ: فَوَالَّذِي بَعثَ مُحمدًا صلى الله عليه و سلم بالحقِّ، لقدْ رأيْتُ الَّذِين سَمَّى صَرْعى يَومَ بدْرٍ، ثُمَّ سُحِبوا إِلى القَلِيبِ، قَلِيبِ بَدْرٍ.

وَفِي أَفْرَادِ البُخَارِيِّ أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ أَخذَ يَوْمًا بمَنْكِبِهِ صلى الله عليه و سلم وَلَوى ثَوبَهُ فِي عُنُقِه، فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا, فَجاءَ أَبُو بكْرٍ فَدفَعَهُ عَنْه وَقَالَ: أَتَقْتُلونَ رَجُلاً أَنْ يقولَ رَبِّي اللهُ؟!

فَلَمَّا اشتدَّ الْأَذَى برسُولِ اللهِ خَرَجَ إِلى الطَّائِفِ، فَدَعَا قَبائِلَ ثَقيفٍ إِلى الْإِسْلام, فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ إِلَّا العِنادَ وَالسُّخْرِيةَ وَالأَذَى، وَرَمَوْه بالحجارةِ حَتَّى أَدْمَوْا عقبَيْهِ، فقرَّر الرُّجوعَ إِلى مكَّة، وَفِي الطَّرِيق –عِنْدَ قَرْنِ الثَّعالِبِ –رَفَعَ النَّبيُّ رأسَهُ، فَإِذَا سَحابَةٌ قَدْ أَظلَّتْه, فَنَظَرَ فَإِذَا فِيهَا جِبريلُ عَليهِ السَّلامُ، فَنَادَاه فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَولَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عليْكَ، وَقَدْ أَرْسَلَ لَكَ مَلَكَ الجِبَالِ لتأْمُرَهُ بما شِئْتَ فِيهِمْ. فَنادَاهُ مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَومِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ، قَدْ بَعثَنِي إِليكَ رَبُّكَ، لتَأْمُرَنِي فِيهِمْ بِما شِئْتَ, إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِم الْأَخْشَبَيْنِ –جَبَلانِ بمكَّةَ –فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». [متَّفقٌ عَلَيْهِ].

في حِفْظِ اللهِ نَبيّهُ صلى الله عليه و سلم

قَالَ تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ [المائدة: ٦٧].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «أَيْ بَلِّغْ رِسَالَتِي وَأَنَا حَافِظُك وَنَاصِرُك وَمُؤَيِّدُك عَلى أَعْدائِك، وَمُظْفِرُك بِهِمْ، فَلَا تَخَفْ، وَلَا تحزَنْ، لَنْ يَصِل أَحدٌ مِنْهمْ إِلَيْكَ بِسُوءٍ، وَقَدْ كَان النبيُّ صلى الله عليه و سلم قَبْلَ نُزولِ هَذِهِ الآيةِ يُحْرَسُ».

وَمِنْ صُورِ حِفْظِ اللهِ لنبيِّهِ صلى الله عليه و سلم مَا رواهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَال: هَل يُعفِّر محمدٌ وَجهَهُ بَين أَظْهُرِكُمْ؟

فَقِيل لَهُ: نَعَمْ. فَقَالَ: واللَّاتِ والعُزَّى! إنْ رأيتُه يفعلُ ذَلك لَأَطَأنَّ عَلى رقبَتِه, ولأُعَفِّرنَّ وجْهَه فِي التُّراب, فأتَى رسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَهُوَ يُصَلِّي –زَعَم– لِيَطَأَ عُنقَه. قَالَ: فَما فَجَأهُمْ مِنْهُ إلَّا وَهُو يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَيتَّقِي بيدِه. فقالُوا لَه: مَا لكَ؟

قَال: إنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لخَنْدقًا مِنْ نارٍ, وهَوْلاً، وأجْنِحةً.

فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه و سلم: «لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الملَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»[رواهُ مسلِم].

وَعنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: لئِنْ رأيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِندَ الكَعْبَةِ لَأطأنَّ عَلَى عُنُقِه. فَبَلَغَ ذَلِكَ النبيّ صلى الله عليه و سلم فقالَ: «لَوْ فَعَلَهُ، لَأَخَذَتْهُ الملَائِكَةُ»[رَواه البُخَارِيُّ].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَاتَلَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم، فحاربَ خصفةً، فَرأَوْا مِنَ المسْلِمين غِرةً، فَجَاءَ رَجلٌ يُقالُ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الحَارِثِ حَتَّى قَامَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم فَقَالَ: مَنْ يَمنَعُكَ مِنِّي؟ فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم: «اللهُ».فَسَقَطَ السيْفُ

مِن يدِه، فأخَذَهُ النبيُّ صلى الله عليه و سلم فَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟»قَالَ: كُنْ خَير آخِذٍ، فقالَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: «اشْهَدْ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ»قَال: لا, ولكنِّي أُعاهِدُك أَلاّ أُقَاتِلَك, وَلَا أَكُونَ مَع قومٍ يُقاتِلُونَك، فَخَلَّى سبيلَه، فرَجع فقالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ. [رَواهُ الحاكِمُ وصحَّحه].

وَعَنْ أنسٍ قَالَ: كَان رجلٌ نَصْرَانِيٌّ فأسْلَمَ، وَكَانَ يقرَأُ البَقرةَ وآلَ عِمْرَان، وَكان يكتُب للنبيِّ صلى الله عليه و سلم, فعادَ نَصْرَانيًّا, وَكَانَ يقُول: مَا يدْرِي محمَّدٌ إِلَّا ما كتبتُ لَه، فأماتَهُ اللهُ، فدفنُوه, فأصْبَحَ وَقَدْ لَفظَتْه الأرْضُ. فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ محمَّدٍ وأصْحَابِه؛ لمَّا هربَ مِنهُمْ نَبَشُوا عَنْ صاحبِنا فألقَوْه، فَحَفَرُوا لَهُ وأَعْمَقُوا, فأصْبَحَ وقدْ لفظَتْه الأرْضُ، فَقالوا: هَذَا فِعْلُ محمَّدٍ وأصحَابِه، نَبشُوا عن صاحبِنا, فَحفَرُوا لَه وأعْمَقُوا ما اسْتَطاعُوا, فَأصْبَحُوا وَقَدْ لَفظَتْه الأرْضُ، فَعلِمُوا أنَّه ليس مِنَ النَّاسِ، فألقَوْه [رَواهُ البُخَارِيُّ].

وَمِنْ حِفظِ اللهِ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه و سلم أنَّه نجَّاهُ مِنْ مُحاولَةِ اغْتِيالٍ دَبَّرتْها لهُ قُريشٌ بلَيْلٍ، حيثُ اتَّفقُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ قبيلَةٍ فَتًى شَابًّا جَلْدًا، ثُمَّ يُعطى كُلُّ وَاحدٍ مِنْ هَؤُلاءِ سَيْفًا صَارِمًا، فيضْرِبُونَ بِه رسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم ضربةَ رَجلٍ وَاحِدٍ، فَيقتُلونَهُ, ويتفَرَّقُ دمُه بينَ القَبَائِلِ، فَلَا يَقْدِرُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى حَرْبِ العَرَبِ جَمِيعًا. فَجَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَذَكَر لَهُ مَكِيدَةَ المشْرِكِينَ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يَبِيتَ فِي فِرَاشِه تِلْكَ الليلةَ، وأخبَرهُ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَذِنَ لَهُ بالهِجْرَةِ.

وَمِنْ ذَلِك أَيْضًا:حِفْظُ اللهِ لنبيِّه مِنْ كَيْدِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ وَهُوَ فِي طَرِيق الهِجْرَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ حِفْظُ اللهِ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه و سلم وَهُوَ فِي الغَارِ، فَقَدْ قَالَ لَهُ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: يَا رَسولَ اللهِ! لَوْ نَظَر أَحدُهم إِلى مَوْضِع قدمَيْهِ لَرَآنا. فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا ظَنُّك بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».

قَالَ ابْنُ كَثِير: «وَمِنْ عِصْمَةِ اللهِ لِرسُولِهِ صلى الله عليه و سلم: حِفظُه مِنْ أَهْلِ مَكَّة وصَنَادِيدِهَا وَحُسَّادِها وَمُعَانِدِيهَا وَمُتْرَفِيها، مَع شِدَّةِ العَداوةِ وَالبَغْضَةِ, وَنَصْبِ المحَارَبةِ لَهُ

لَيْلاً وَنَهَارًا, بِما يخلُقُه اللهُ مِنَ الْأَسْبَابِ العَظِيمةِ بِقُدْرَتِه وَحِكْمَتِه العَظيمةِ, فَصَانَهُ فِي ابْتِدَاءِ الرِّسَالَةِ بِعمِّه أَبي طالبٍ, إِذْ كَانَ رَئيسًا مُطاعًا كَبيرًا فِي قرَيْشٍ, وَخَلَقَ اللهُ فِي قلْبِه محبةً طَبِيعيَّةً لِرسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم لَا شَرْعِيَّةً, وَلَوْ كَانَ أَسْلَم لاجْتَرأَ عَلَيْهِ كُفَّارُها وَكِبارُها، وَلَكِنْ لمّا كَانَ بينَهُ وبَينهُم قَدْرٌ مُشتَركٌ مِن الكُفْرِ هَابُوه واحْتَرمُوه.

فَلَمَّا ماتَ عَمُّه أَبو طالبٍ نَال مِنْه المشْركُونَ أَذًى يَسيرًا، ثُمَّ قَيَّضَ اللهُ لَهُ الأَنْصارَ، فَبايعُوهُ عَلى الْإِسْلامِ, وَعَلى أَنْ يتحوَّل إِلَى دَارِهِمْ وَهِيَ المدينةُ, فَلَمَّا صَارَ إِلَيْهَا مَنَعُوه مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ, وَكُلَّما هَمَّ أحدٌ مِنَ المشْرِكينَ وَأَهْلِ الْكِتابِ بِسُوءٍ كَادهُ اللهُ، وَرَدَّ كيْدَه عليْهِ([١٠]).

١٠ تفسير ابن كثير (١٠٨/٢ – ١١٠) باختصار.

مَحَبّةُ النّبِيّ صلى الله عليه و سلم

إِنَّ مِنْ لَوازِمِ الإيمَانِ مَحَبَّةَ سيِّدِ الأَنَامِ مُحمَّدٍ صلى الله عليه و سلم, وَكَيْفَ لَا يُحِبُّ المسْلِمُ نبيَّه, وَهُوَ السَّببُ فِي هِدَايتِه إِلَى طَرِيقِ النُّورِ وَالإيمَانِ, والسَّبَبُ فِي نَجاتِه مِنَ الكُفْرِ والنِّيْرَانِ!

قَالَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[مُتَّفقٌ عليْهِ].

بَلْ إِنَّ محبَّةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم تتَجاوَزُ مَحَبَّةَ الإنْسانِ نَفْسَه، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الخطَّاب رضي الله عنه للنَّبيِّ صلى الله عليه و سلم: يَا رَسولَ اللهِ! لأَنْتَ أَحَبُّ إِليَّ مِنْ كُلِّ شيءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»فقالَ لَهُ عُمَر: إِنَّه الآنَ –وَاللهِ –لأَنْتَ أَحَبُّ إِليَّ مِنْ نَفسِي، فَقَالَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: «الْآنَ يَا عُمَرُ»[رَواهُ البُخارِيُّ]، أي: الآنَ عَرَفْتَ فَنَطَقْتَ بِمَا يجِبُ.

إِنَّ محبَّةَ النبيِّ صلى الله عليه و سلم يدَّعِيها كلُّ أَحدٍ، يدَّعِيها أَهْلُ الْأَهْواءِ والبِدَعِ، يَدَّعيهَا القُبورِيُّونَ والسَّحرَةُ وَالْمَشَعْوِذُونَ, بَل يدَّعيها كثيرٌ مِنْ أَهْلِ الفِسْقِ والفُجورِ، ولكنَّ القضيةَ ليسَتْ بِدعوَى المحبَّةِ، بَلْ بحقِيقَةِ المحبَّةِ، إِذْ مِن لوازِمِ محبَّةِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم: طاعتُه فِيما أَمر، واجْتِنابُ مَا عَنْه نَهَى وَزَجرَ، وَألا يعبدَ الله تعالَى إِلَّا وفقَ شَريعتِه لا بالبِدَعِ والأَهْواءِ, وَلِذَلِكَ فَإِنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»قَالُوا: وَمَنْ يأْبَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[متفقٌ عَلَيْهِ].

إِنَّ محبةَ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم ليسَتْ فِي إِقامَةِ الموَالِد، ولَا المآتِم, وَلَا فِي إِنْشَاءِ قَصَائِدِ الغُلوِّ وَالإطْرَاءِ، بَل هِي فِي العَمَلِ بِسُنَّتِه, وتعظِيمِ شَرِيعَتِه, وَإِحْيَاءِ هَدْيِه، والذَّبِّ عنْه وَعَنْ سُنَّتِه, وتصْدِيق خَبَرِه، واسْتِحْضارِ هَيْبَتِهِ عِنْدَ الحدِيثِ عَنْهُ، وَالصَّلاةِ عَلَيهِ كُلَّمَا ذُكِر، وَتَرْكِ الابْتِداعِ فِي شَرِيعَتِه, وَمحبَّةِ أَصْحَابِهِ والانْتِصارِ لهمْ، وَمعْرِفةِ فَضَائِلِهِمْ، وَبُغْضِ مَنْ عَادى سُنَّتَه, أَوْ خالَفَ شَرِيعَتَه, أَوِ انْتقصَ مِنْ أَقْدارِ حَمَلَتِهَا وَرُواتِها؛ فَكُلُّ مَنْ خَالفَ شيئًا مِنْ ذَلِك فهُو بعيدٌ عَنْ محبَّةِ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم بقَدْرِ مُخَالِفَتِهِ.

فالنبيُّ صلى الله عليه و سلم - مَثَلاً –يَقُول: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[متَّفقٌ عليْهِ].

وَيقُول: «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ»[رَوَاهُ أَهْلُ السُّنن].

وَمع هَذا التحْذِيرِ مِنَ البِدعِ يَأتي أُناسٌ، فَيبتَدعُونَ فِي دينِ اللهِ تَعالى مَا ليْس منه، وَيستحْسِنون هذهِ البدعَ، بَل وَيزعُمون أَنَّها مِن دَلائلِ محبَّةِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم، بَلْ قدْ يَكْذِبون عَلَيْه، وَيضعونَ الحديثَ وينْسِبونَه إِلَى النبيِّ صلى الله عليه و سلم وَيقولُون: كَذبْنَا لَه، ولمْ نكذِبْ علَيْهِ، وَهذا مِنْ أَعْظَم الفِرَى وأَقْبحِ الضَّلالِ، لأنَّ شريعةَ اللهِ تَعالى كاملةٌ لَا تحتاجُ إِلى كَذبِ هَؤُلاءِ وأباطِيلِهمْ.

وَمِنْ هَذا النَّوعِ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم نَهَى عَن سبِّ أصحَابه وَقَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[مُتَّفقٌ عليْه].

وَمع ذَلِكَ يَأْتِي أُناسٌ فَيسُبُّون أَصحابَ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم، وَيلْعنُونَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَيَرمُونَ الطاهِرةَ المطهَّرةَ عَائشةَ أُمَّ المؤمِنينَ رضي اللهُ عَنْهَا بِمَا بَرَّأَها اللهُ مِنه فِي كِتَابه، وَيزْعمُون أنَّهم يفعلُون ذَلِكَ مَحبةً لِرَسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَدفاعًا عَنْ أَهْلِ بيتِه.
وَمِنْ هذا النَّوعِ أيضًا أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم نَهى عَنِ الغُلوِّ فِي إطرائِه, فَقَالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ, إِنَّمَا أَنَا عَبْدُه، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه»[رَوَاهُ البخاريُّ].

وَمع هَذا النهيِ الوَاضحِ، يَأتِي أُناسٌ يَتَّبعُون سَنَنَ أَهلِ الكتابِ, فَيصِفُونَ النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم بالأَوصَافِ الَّتي لَا تليقُ إلا بالخالقِ سُبحانَه، وَيسأَلُونَه الرِّزْقَ وشِفَاء الْأَمْرَاضِ, وَالنَّجاةَ مِنَ المهَالِك، وَغيرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُطلبُ إِلَّا مِن اللهِ تَعالى, ثُمَّ يزعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ محبَّةِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم، وَالصَّحيحُ أنَّه مِنْ دلائلِ الجهْلِ والشِّرْكِ والمخالِفَة لله ولِرسُولِه صلى الله عليه و سلم.

أَعْظَمُ عَلاَمَاتِ النُّبُوّةِ

إِنَّ أعْظم عَلامَاتِ نُبوَّةِ نبيِّنا مُحمَّدٍ صلى الله عليه و سلم هُوَ القرآنُ العَظِيمُ، ذَلك الكتابُ الَّذِي تحدَّى اللهُ تعالى به العربَ وغيرَهُم –إلى يَوْم القِيَامَةِ –أَنْ يَأْتُوا بِمثْلِه، فَقَالَ تَعَالَى: أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ۖ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ [يونس: ٣٨].

قَال ابْنُ الجوزيّ: وَهُو مُعجزٌ مِنْ أَوْجُه:

أَحدُها:مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الفَصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ فِي الْإِيْجَازِ وَالْإِطَالَةِ, فَتَارَةً بالقِصَّةِ بِاللَّفْظِ الطَّوِيل، ثُمَّ يُعيدُهَا باللَّفْظِ الوَجِيز, فَلا يُخلُّ بمقْصُودِ الْأُولى.

وَالثَّاني: مُفَارَقتُه لأساليبِ الْكَلام وأوْزَانِ الشِّعْر، وبهذَيْنِ المعنَيَيْنِ تُحُدِّيَت العرَبُ، فَعجزُوا وتحيَّروا وَأَقرُّوا بفضْلِه، حَتَّى قَالَ الوليدُ بْنُ المغيرةِ: واللهِ إِنَّ له لحلَاوةً, وإِنَّ عليهِ لطلَاوةً.

وَالثَّالِثَةُ: ما تضمَّن مِن أَخْبارِ الْأُمم السَّالِفةِ, وَسِيرِ الأنْبياءِ الَّتي عَرفَها أهلُ الكِتابِ، مَع كَوْنِ الآتِي بِهَا أميًّا لا يكْتبُ وَلَا يقْرأُ, وَلَا عِلْمَ لَهُ بمجَالسةِ الأحْبارِ وَلَا الْكُهَّانِ.

وَمَنْ كَانَ مِنَ العَربِ يكْتبُ وَيقْرأُ وَيَجَالِس عُلمَاءَ الأَخْبارِ لم يدْركْ مَا أخبرَ بِهِ القُرْآنُ.

والرَّابعُ: إخبارُه عَنِ الغُيوبِ المسْتقْبَلَة الدَّالَّة عَلَى صدْقِه قَطعًا لوُقُوعِها عَلَى ما أَخْبَر، كَقَولِه لليهودَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ[البقرة: ٥٩].

وَقَولِه: وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ۖ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ [البقرة: ٣٢], ثُمَّ قَالَ: فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ[البقرة: ٢٤]فَما فَعلُوا.

وَقَولِه: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ [آل عمران: ٢١] وغُلِبُوا.

وقوْلِه: لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا [الفتح: ٢٧]، وَدَخلُوا.

وقولِه فِي أبي لهبٍ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)وَٱمْرَأَتُهُ ۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ (٤)فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) [المسد: ٣ –٥]. وهَذا دليلٌ عَلَى أنَّهما يمُوتَانِ عَلَى الكُفْر، وَكَذَلِكَ كَان.
والخامِسُ: أنَّه محفوظٌ مِنَ الاخْتِلافِ والتَّناقُضِ: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ ۥ لَحَٰفِظُونَ[الحجر: ٩].
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه و سلم قالَ: «مَا مِنَ الأَنْبِياءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِي مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ, وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ, فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[متفقٌ علَيْه].

قَال ابْنُ عَقيلٍ: وَمِنْ إِعجازِ القرآنِ أَنَّه لَا يُمكنُ لأحدٍ أَنْ يَسْتَخْرِج مِنْه آيةً قد أُخِذ معْناها مِنْ كَلامٍ قَدْ سَبق، فَإِنَّه مَا زَال النَّاسُ يكشِفُ بعضُهمْ عَنْ بَعْضٍ، يُقَالُ: المتنَبِّي أَخَذَ مِنَ البُحْتُرِيِّ!.
قَالَ ابْنُ الجوزِيِّ: وقدِ استخْرجتُ معنَيَيْنِ عَجِيبَيْن:

أحدُهما: أَنَّ مُعجِزاتِ الأنبياءِ ذَهبتْ بمَوْتِهم, فَلو قَالَ مُلحدٌ اليومَ: أيُّ دليلٍ عَلى صدقِ محمدٍ ومُوسى عليهِمَا السَّلامُ؟

فَقِيل لَهُ: مُحمَّد صلى الله عليه و سلم شُقَّ له القمرُ، ومُوسى عَليهِ السَّلامُ شُقَّ له البحرُ لَقال: هَذا محالٌ.
فَجعلَ اللهُ سبحانَه هذَا القرآنَ مُعْجِزًا لمحمدٍ صلى الله عليه و سلم يَبقى أَبدًا؛ ليظْهَر دَليلُ صِدْقِه بعدَ وَفَاتِه، وجعلَهُ دَلِيْلاً عَلَى صدْقِ الأنبياءِ, إِذْ هُو مصدِّق لهمْ ومخْبِرٌ حالَهم.
والثَّانِي:أنَّه أخبَر أهلَ الكِتابِ بِأنَّ صِفةَ محمدٍ صلى الله عليه و سلم مكتوبةٌ عِندهُم في التوراةِ والإنجيلِ, وشَهد لحاطِبٍ بالإيمانِ, وَلِعَائِشَةَ بِالبَرَاءَةِ, وَهَذِهِ شَهاداتٌ عَلى غَيْبٍ, فَلو لَم يكُنْ فِي القُرْآنِ وَالإنْجِيلِ صِفتُه، كَانَ ذَلك مُنفِّرًا لهمْ عَن الإيمانِ بِهِ، وَلَوْ عَلِمَ حَاطِبٌ وَعَائِشة مِن أنفُسِهما خِلافَ مَا شَهِدَ لهمَا بِه، نَفَرا عَنِ الإيمَانِ([١١])».

١١ الوفا ص(٢٦٧ – ٢٧٣) باختصار.

عِبَادَةُ النّبِيّ صلى الله عليه و سلم

كَان النبيُّ صلى الله عليه و سلم كثيرَ العِبادةِ مِنْ صلاةٍ وصيام وذِكْرٍ وَدُعَاءٍ وغيرِ ذَلك مِنْ أَنْوَاعِ العِبادةِ, وكانَ صلى الله عليه و سلم: إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أثبتَه, وَحَافظَ عَلَيْه، فَعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم إِذَا فَاتَتْه الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيلِ مِنْ وَجعٍ أَوْ غيرِهِ، صَلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعةً [رَواهُ مُسْلِم].

وَكَانَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم لَا يدَعُ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَكَانَ يقُوم مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تتفطَّر قدماهُ. فلمَّا قِيل لهُ فِي ذلِك قالَ: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟»[متَّفقٌ عَلَيْه].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمانِ رَضِي الله عَنْهُما قَالَ: صلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم ذَاتَ ليلةٍ, فافتتَحَ البقرَةَ، فقلْتُ: يرْكَعُ عِنْد المائةِ. ثُمَّ مَضَى. فقلْتُ: يُصلِّي بِها في ركْعَةٍ، فمضَى, ثم افتتَح النِّسَاء فقرَأَها, ثُمَّ افتتح آلَ عِمْرَانَ فقرأَهَا, يَقْرأُ مُتَرسِّلاً([١٢])؛ إذا مرَّ بآيةٍ فِيها تسبيحٌ سبَّح، وَإِذَا مرَّ بسؤالٍ سَألَ، وَإِذَا مرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ، ثُمَّ ركعَ فجعَل يقولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيم»فَكان رُكوعُه نَحوًا مِنْ قِيامِه, ثُمَّ قال: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ, رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ», ثُمَّ قامَ قِيَامًا طَوِيلاً قَرِيبًا مما رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»فَكَانَ سُجودُه قَرِيبًا مِنْ قِيامِهِ»[رواهُ مسْلِم].

وَكَان صلى الله عليه و سلم يُحافِظُ عَلَى عَشْرِ رَكَعاتٍ فِي الحضَرِ دَائمًا: رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الظهرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعدَها، وَركعَتَيْنِ بَعْدَ المغرِبِ, وركعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ فِي بَيتِه، وَركعَتَيْنِ قَبْلَ صَلاةِ الفجرِ.

وَكَانَتْ محافظَتُه عَلَى سُنَّةِ الفجْرِ أشدَّ مِن جَميعِ النَّوافلِ، ولمْ يَكُنْ يَدَعُها هِيَ وَالوتْرَ, لَا حَضَرًا وَلَا سَفرًا, وَلم يُنْقَل أَنَّه صلى الله عليه و سلم صَلَّى فِي السَّفرِ رَاتِبةً غيرَهُما.

وَكانَ يُصلِّي أَحْيانًا قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبعًا. وَقَامَ ليلةً بآيةٍ يتْلُوها ويرُدِّدُها حَتَّى الصَّباح.

وَكان صلى الله عليه و سلم يتحرَّى صَوْم الإثْنَيْنِ وَالخَمِيس.[رَواهُ الترمذِيُّ وحسَّنه].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الإثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ, فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»[رَواه الترمذِيُّ وحسَّنه].

وَكَانَ صلى الله عليه و سلم يصُومُ مِن كُلِّ شهرٍ ثَلاثةَ أَيَّامٍ، فَعَنْ مُعَاذَةَ العَدَوِيَّةِ أَنَّها سألتْ

١٢ مترسلاً: مرتلاً متمهلاً.

عَائشةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا: أَكَانَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم يَصُومُ مِن كُلِّ شَهرٍ ثلاثةَ أيَّام؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: مِنْ أيّ الشَّهْرِ كَان يصومُ؟ قَالَتْ: لَم يكُنْ يُبَالي مِن أيِّ الشهرِ يَصُومُ. [رواه مسْلِم].

وَعَنِ ابْنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم لَا يُفْطِرُ أَيَّامَ البِيضِ فِي حَضَرٍ وَلَا سَفَرٍ»[رَواهُ النِّسائِيُّ وحسَّنه النوويُّ].

وَكان صلى الله عليه و سلم يَصُوم عَاشُورَاءَ وَيَأْمُر بصِيامِه [متَّفقٌ عليْه].

وَعَنْ عَائشةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا قالتْ: لَم يكنْ النبيُّ صلى الله عليه و سلم يَصومُ مِنْ شَهرٍ أَكْثرَ مِنْ شَعْبان, فَإنَّه كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّه. وَفِي رِوايةٍ: كَانَ يصومُ شَعبانَ إلَّا قليلاً. [مُتَّفقٌ عَلَيْه].

وَأَمَّا عِبادةُ الذِّكْر، فقدْ كَان لِسانُ النبيِّ صلى الله عليه و سلم لَا يَفْتُر مِن ذِكرِ الله عزَّ وَجلَّ, فكانَ يذْكُر اللهَ عزَّ وجلَّ فِي كافَّةِ أحْوالِه, فَكَانَ إذَا انْصَرفَ مِنْ صَلاتِه اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وقال: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ, تَبارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَام»[رَوَاهُ مُسْلِم].

وَكَانَ إذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ, لَهُ الملْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ, وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ, وَلَا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ, وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وَكَانَ صلى الله عليه و سلم يقُولُ فِي رُكوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملَائِكَةِ وَالرُّوحِ»[رَوَاهُ مسْلِم].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم: «اللهُمَّ آتِنا فِي الدُّنيَا حَسَنَةً, وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»[متفقٌ علَيْه].

وَكان صلى الله عليه و سلم يُكْثِرُ مِنَ الْاستِغفَارِ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ لِرسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم في المجْلِس الوَاحِد مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»[رَواه أَبُوداود والترمِذيُّ وقال حَسَنٌ صَحِيحٌ].

وَكانَ صلى الله عليه و سلم ينْهَى عَنِ الغُلوِّ وَيُحذِّرُ مِنَ التشدُّدِ في العِبادةِ وَيقولُ: «عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ, فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»وَكَانَ أَحبُّ الدِّينِ إليهِ مَا داومَ عليهِ صاحبُه. [متفقٌ عليهِ].

بَدْءُ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ

رَجعَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم إلى مكَّةَ، بَعْدَمَا قابلَه أهلُ الطَّائف بالسُّخْرِيَةِ والاسْتِهزاءِ, وَدخلَها فِي جِوار المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ..

وَفي وَسط هَذا الجوِّ المشْحونِ بالتكْذِيبِ والحصَارِ والقهْرِ، أَراد اللهُ تَبارك وَتعالى أَنْ يُثَبِّتَ رسولَه صلى الله عليه و سلم، فَأكْرَمَه بالإسْرَاءِ وَالمعْرَاجِ, وَأَراهُ مِنْ آياتِه الكُبْرى، وَأَطْلَعَهُ عَلى دَلائلِ عَظمَتِه وَآياتِ قُدرَتِه, لِيكُونَ ذَلِكَ قوَّةً لَه في مواجهةِ الكُفْرِ وأهلِه.

أَمَّا الإِسْرَاءُ: فَهُو تَوجُّهُه صلى الله عليه و سلم لَيلاً مِن المسْجِدِ الحرَامِ فِي مكَّةَ إِلى المسجِدِ الأَقْصَى فِي بيتِ المقْدِسِ، وَرُجوعُه مِنْ ليلَتِهِ.

وَأَمَّا المعراجُ: فَهُوَ صُعودُه إِلى العَالم العلويِّ، ولِقاؤُه الأنبياءَ, وَرؤيتُه عالَم الغيْبِ, وَفيه فُرِضتِ الصَّلواتُ الخمْسُ.

وَكانتْ هَذهِ الحادثةُ سَبَبًا فِي تمحِيص أَهْلِ الإيمَانِ, فَقَدْ ارتدَّ بعضُ الَّذِين أسْلَموا، وذَهب البعْضُ إِلى أَبي بكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّ صاحِبَك يَزْعُم أَنَّه أُسْرِيَ به الليلةَ إِلى بيتِ المقْدِسِ. فَقال الصديقُ: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعمْ. قَالَ: لَئِنْ كانَ قَال ذلك لَقَدْ صَدقَ. قَالُوا: أَوَتُصَدِّقُه أَنَّه ذَهبَ اللَّيلةَ إِلى بيتِ المقْدِس وَجَاءَ قبْل أن يُصبِح؟

قَال: نَعم، إِنِّي لَأصدِّقُه فِيما هُو أَبْعدُ مِن ذَلك، أُصَدِّقُه بِخَبرِ السَّماءِ فِي غَدوَةٍ أَوْ رَوْحةٍ. فَلِذلِك سُمِّي أَبو بكرٍ الصِّدِّيقَ.

إِنَّ تكذيبَ قُريشٍ للنبيِّ صلى الله عليه و سلم وَعدمَ تمكينِها لَه مِن أداءِ الرِّسالةِ جَعلَهُ صلى الله عليه و سلم يتَّجِهُ إِلَى قَبائِلِ العَربِ الأخْرَى, فَبعْد رُجوعِهِ صلى الله عليه و سلم مِنَ الطَّائفِ بَدأَ يَعْرِضُ نَفْسَه عَلى القَبائِلِ فِي المواسِمِ, يَشْرَحُ لهمُ الإسْلامَ، وَيعْرِضُ عَليهِمُ الإيواءَ وَالنُّصْرةَ حَتَّى يُبَلِّغَ كَلامَ اللهِ.

فَكانَ مِنْهم مَنْ يَردُّ ردًّا قبيحًا, وَمنهُمْ مَنْ يردُّ ردًّا حَسنًا. وَكَانَ مِن أَقبحِهم ردًّا بنُو حنيفةَ, رَهطُ مسيلمةَ الكذَّابِ.

وَمِمَّنْ عرضَ نفسَه عليهمْ نفرٌ مِن عَرب «يثْرِبَ»مِن الأَوْسِ, فلما كلَّمهُم النبيُّ صلى الله عليه و سلم عَرفوا وَصفَه الَّذِي كَانَتْ تَصِفُه بِه اليهودُ، فَقَالُوا فِيما بينهم: «واللهِ إِنَّه النَّبِيُّ الَّذِي تُواعِدُنا به اليهودُ، فلا تسبِقْنا إليه»فآمَنَ مِنْهمْ سِتةٌ كانوا سببَ انْتِشارِ الإِسْلَامِ في المدينةِ، وَهؤُلاءِ الستةُ همْ: أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ, وَعَوْفُ بْنُ الحَارِثِ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ، وَقُطْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ حَدِيدَةَ, وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِر، وسَعْدُ بْنُ الرَّبِيع.

ثُمَّ انصَرفُوا بَعدَ أَنْ وَعدُوه بالمقابَلَةِ فِي العام القادِم.
فَلَمَّا كانَ العامُ القَابِلُ، فِي السنَةِ الثانيةَ عشرةَ مِن البَعْثَةِ حَدثتْ بيعةُ العقَبةِ الْأُولى, وَفِيها بَايعَ النبيَّ صلى الله عليه و سلم اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً, عَشْرةٌ مِن الأَوْسِ, واثْنَان مِن الخَزْرَج, وَفِيهِمْ خمسةٌ مِن الستَّةِ الأَوَّلينَ, فَآمنُوا عِند العقَبةِ, وبَايعَوه عَلى ما أحبَّ مِن الإيمانِ والتصْدِيقِ وَترِكِ الشِّرْك والمعَاصِي وَفِعلِ الخيْرِ, وَأَلَّا يقولُوا إِلَّا الحقَّ، ثُمَّ انصَرفُوا إِلى المدينَةِ, فَأَظْهَر اللهُ فِيها الإِسْلَامَ، ولم تبقَ دارٌ مِن دُورِ المدينَةِ إِلَّا وَفيها ذِكْرُ الرَّسولِ صلى الله عليه و سلم.

وَفِي العام التَّالِي لبيعَةِ العَقَبةِ الْأُولَى أَي السنةَ الثالثةَ عشرةَ مِنَ البعْثةِ حَدثتْ بَيعةُ العقَبةِ الثانيةُ، وَفِيهَا وَفَد على رسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم سَبْعُونَ رَجُلاً وامْرأَتانِ, فأَسْلَمُوا, وَبَايعُوه عِند العقَبةِ عَلى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاط وَالكَسَلِ، وَالنَّفَقةِ فِي العُسْرِ واليُسْرِ، وَعَلى الأَمْرِ بِالْمعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المنْكرِ، وَأَنْ يقُومُوا فِي اللهِ لا يخافُونَ فِي اللهِ لَومةَ لائِمٍ، وعَلَى النُّصرةِ والمنعةِ.

ثُمَّ طلبَ مِنهم النبيُّ صلى الله عليه و سلم أَنْ يُخْرِجُوا مِنهمُ اثنَيْ عَشرَ نَقِيبًا، لِيكُونُوا عَلَى قَومِهم بِما فِيهِمْ, فَأَخْرجُوا لَه النُّقباءَ تسعةً مِنَ الخَزْرَجِ, وثلاثةً مِن الأَوْسِ, فَقَال لهمُ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: أَنْتُم كُفلاءُ عَلى قومِكُمْ ككفالةِ الحواريِّينَ لِعيسَى بْنِ مَرْيمَ, وَإِني كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي، ثُمَّ انْصرفُوا إِلى المدينةِ, فانْتشرَ الإِسْلَامُ بينَ أَهْلِها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ([١]).
وَكَانَ هَذَا مُقدمةً للهِجْرة النبويَّةِ المبَارَكَةِ.

الهِجْرَةُ إِلَى المدِينَة

لمَّا اشتدَّ الْأَذى بأصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم, أَذِن رسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم لهمْ بالهجْرَةِ إِلَى المدينةِ, وَكَانَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم قدْ اطْمأنَّ بأنَّ الدَّعْوةَ قَدِ انتشرتْ فِي المدينةِ, وَأَنَّها قدْ أَصبَحَتْ مُهَيَّأَةً لاسْتِقبالِ المهَاجِرينَ.

فَبادَر المؤْمِنُونَ إِلَى الهجْرَةِ, وَخَرجُوا أَرْسَالاً يتْبع بعضُهُم بَعضًا.
وَبَقِي النبيُّ صلى الله عليه و سلم، وَبَقِي مَعه أَبُو بكْرٍ وَعَليٌّ، وَكذلِكَ مَن احْتَبَسَهُ المشْرِكُون كُرْهًا.

عَلِمْت قُريشٌ أَنَّ أَصْحابَ النبيِّ صلى الله عليه و سلم ذَاهِبُون إِلى أرضِ مَنْعةٍ، فَخَافُوا مِن انْتِشارِ هَذا الدِّينِ، وَأَجْمعُوا عَلى قَتْلِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم.

وَفي اللَّيْلَةِ الَّتِي خَطَّطوا لاغتِيالِ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم فِيها، أَعْلَمَ اللهُ نبيَّه صلى الله عليه و سلم بِما دَبَّره هؤلاءِ مِن كيدٍ، وأمرَهُ بالهجْرَةِ وَاللِّحاقِ بِمَنْ هَاجر مِنَ المؤْمِنِينَ، وَأَلَّا يَنامَ فِي مَضجَعِه تِلك الليلةَ.

طَلَب النبيُّ صلى الله عليه و سلم من علي رضي الله عنه أَنْ يَنامَ فِي فِراشِه, وَأَنْ يَتسجَّى ببُرْدَتِه، وَأَمرَهُ أَنْ يُؤَدِّيَ عَنْه وَدَائِعَ النَّاسِ. فامتثَلَ عَليٌّ للأمْرِ، وَنَامَ فِي فِراشِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم والسُّيوفُ مُشْرَعَةٌ خَلفَ البَابِ.

وَخَرَجَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم مِنْ بَيْنِ هَؤُلاءِ الَّذينَ يُريدُونَ قَتْلَه، وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى أَعْمَى أَبْصارَهُمْ, وَنِكايةً فيهِمْ، نَثَر النبيُّ صلى الله عليه و سلم التُّرابَ عَلى رُؤوسِهم, ثُمَّ انطلَقَ إِلى بيتِ صَديقِه أَبي بكْرٍ، وَخَرجَا مُسرِعَيْنِ ليلاً.

انطلَقَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم وَأَبُوبكرٍ حتَّى وَصَلَا إِلَى غَار ثَوْرٍ, وَمكثَا فِي الْغَارِ حَتَّى يخفَّ عَنْهُما الطَّلَب.

أَمَّا قريشٌ فقدْ ثارَتْ ثائِرتُها عِندَما عَلِمُوا بِفسَادِ مَكْرِهم، وَفَشَل خُطَّتِهم, فَأرْسلُوا الطُّلَّابَ مِن كلِّ جهةٍ, وَرَصدُوا لمنْ يَأتِي بالنبيِّ صلى الله عليه و سلم أَوْ يَدلُّ عَلَيْهِ مِائةَ ناقةٍ, وَقَدْ أَوْصلَهمُ البحثُ عَن النبيِّ صلى الله عليه و سلم إلى بَاب الغَارِ, وَوقفُوا عنده، إلَّا أنَّ الله تعالَى صَرفَهُم عَنْه، وَحَفِظَ نبيَّه صلى الله عليه و سلم مِنْ كَيْدِهم. قَالَ أَبُو بكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ نَظر أحدُهمْ إلى مَوْضِع قدمَيْه لأبْصَرنَا. فَأجَابَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[رواه البُخارِيُّ].

وَبعدَ ثَلاثِ لَيالٍ جَاءهُما الدَّلِيلُ الَّذِي قَدِ اسْتأْجَراهُ مِنْ قَبْل بالرَّاحِلَتَيْنِ حَسبَ الخطَّةِ المعدَّةِ سَلفًا، ثُمَّ اتجَهُوا نَحوَ المدِينَةِ.

وَفِي الطَّرِيق مرَّ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بخيْمةِ أمِّ معبدٍ الخزَاعِيَّة، وَأصَابها مِنْ بَركَتِه فِي شَاةٍ لَها، لَيسَ بِها قَطْرةُ لَبنٍ، فَاسْتأذَنها فِي حَلْبِها, فَامتَلأَ ضَرْعُها باللَّبَنِ, فسَقاهَا وَسَقَى مَنْ مَعهُ، ثُمَّ شرِبَ هُو صلى الله عليه و سلم، ثُمَّ حلَب الإناءَ ثَانيًا فملَأهُ وارْتَحل صلى الله عليه و سلم.

وَسَمِعَ سُراقةَ بْنَ مَالكٍ بأنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم قَدْ سَلكَ طَرِيقَ السَّاحِلِ, وَكَانَ يَطمَعُ فِي جَائِزَةِ قُرَيْشٍ, فَركِبَ فَرَسَهُ وَأَخَذَ رُمْحَهُ، وانْطلَق فِي طلَبِهِمْ, فَلَمَّا قَرُب مِنْهمْ دَعَا النبيُّ صلى الله عليه و سلم، فساخَتْ يَدا فَرسِه فِي الأرْضِ، فَعلِمَ أَنَّ ذَلكَ بدُعاءِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم وَأنَّه محفُوظٌ، فَنَادَى بالْأَمَانِ وَعَاهَدَ النبيَّ صلى الله عليه و سلم أَنْ يردَّ عَنْه الطَّلبَ، فَدَعَا لَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم، فخلصَتْ يَدا فَرَسِه، فَرجَع وأَخَذَ يُخذِّلُ النَّاسَ عَنِ البحْثِ فِي الجهَةِ الَّتي بِها رسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم.

كَان الأنْصارُ يخرُجونَ كُلَّ يوْم إلى مدَاخِلِ المدينةِ ينتَظِرُون قُدُومَ النبيِّ صلى الله عليه و سلم، ثُمَّ يَعُودُونَ إلى منازِلهمْ عِنْدَ اشْتِدَادِ الحرِّ. فلمَّا كَانَ يَومُ الإثْنَيْنِ ثَانِيَ عَشَرَ رَبيعِ الأوَّلِ، عَلَى رَأْسِ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنةً مِن النُّبوَّة, صَاحَ صَائحٌ بقدُوم رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم فسُمِعَ الصِّيَاحُ وَالتَّكْبِيرُ فِي كُلِّ مَكانٍ، وَخَرَجَ النَّاسُ جَمِيعًا لاسْتِقبَالِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم.

فَنَزَلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بقُبَاءٍ, وَأسَّسَ مَسْجِد قُبَاءٍ، وَهُو أَوَّلُ مسجدٍ بُنِي في الإسْلَامِ.

ثُمَّ خَرجَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم مِنْ قُبَاءٍ بعْدَ أَنْ أَقَامَ بِها أَيامًا، وَفي الطَّريقِ أَدركَتْهُ الجمُعةُ، فَصلَّاها بمَنْ مَعَهُ مِنَ المسْلِمِينَ، وَهِيَ أَوَّلُ جُمُعةٍ صَلَّاها النبيُّ صلى الله عليه و سلم, وَبَعْدَ الصَّلاةِ دَخَلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم المدينةَ مِنْ نَاحِيتِهَا الجنُوبِيَّةِ, وَمنذُ ذَلكَ اليومِ صَار اسمُها مَدينةَ النبيِّ صلى الله عليه و سلم, وَقَدْ عَمَّتِ الفرْحةُ والبهْجةُ أَهلَ المدينةِ بقدُومِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم، وبذَلِكَ صَارَ للإسْلَامِ دَارُ منعةٍ ينطلِقُونَ مِنْها لتبليغِ رِسالةِ اللهِ إِلى مَشَارِقِ الأرْضِ ومغَارِبِها.

مَعيشةُ النبيّ صلى الله عليه و سلم

لقدْ علِمَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم حقيقةَ الدُّنيا، وسرْعَةَ زَوالِها وانْقِضائِها, فَعَاشَ فِيها عَيشَ المسَاكِينِ لَا عيشَ الْأَغْنِياءِ المتْرَفِينَ, يجُوعُ يومًا فيصْبِرُ, وَيشْبَعُ يومًا فيشْكُرُ.

وَقَدْ بيَّن النبيُّ صلى الله عليه و سلملأمَّتِه خُطورَةَ الفتْنةِ بالدُّنْيا، والانْغماسِ فِي شَهواتِها ومَلذَّاتِها، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «إِنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ, وَإِنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاظِر مَا تَعْمَلُونَ, فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ, فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[رواه مسلم].
عَلِمَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَجَنَّةُ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ، فَكَانَ صلى الله عليه و سلم يقولُ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الآخِرَةِ»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وَلِذَلِكَ فَقَدْ جعلَ الآخرةَ همَّه, وَفرَّغ قلبَهُ مِنْ هُموم الدُّنْيا، فأتَتْه الدُّنْيا تَرْكُضُ، فَكانَ يَتحاشَاها وَيقُولُ: «مَالِي وللدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[رَوَاهُ الترمذِيُّ وقال: حَسنٌ صحيحٌ].

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الحارِثِ أَخُو جُوَيْرِيةَ زوجِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم عِنْدَ مَوْتِهِ دِينَارًا وَلَا دِرْهمًا, وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا, إِلَّا بَغْلَتَهُ البَيْضَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا وَسِلَاحَهُ, وَأَرْضًا جَعَلَهَا لِابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً»[رَوَاهُ البُخَارِيُّ].

هَذِهِ هِي تَركةُ سَيِّدِ الخَلْقِ أَجْمَعِينَ, صَلواتُ رَبِّي وَسَلَامُه عَلَيْهِ، وَهُو الَّذِي أَبى أَنْ يكُونَ مَلِكًا رَسُولاً, وَفَضَّل أنْ يكُونَ عبدًا رسُولاً, فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَلسَ جِبْرِيْلُ إِلَى النبيِّ صلى الله عليه و سلم فَنَظَر إِلى السَّماءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا المَلَكُ مَا نَزلَ مُنْذُ خُلِقَ قَبْلَ هَذِهِ السَّاعةِ. فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحمَّدُ! أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ؛ أَمَلِكًا أَجْعَلُكَ، أَمْ عَبْدًا رسولاً؟ فَقَالَ لَه جِبْرِيلُ: تَواضعْ لِرَبِّكَ يَا محمَّدُ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «لَا بَلْ عَبْدًا رَسُولاً»[رواهُ ابنُ حبَّان وصحَّحهُ الألبانيُّ].
وَهَكَذَا كَانَتْ مَعِيشةُ النبيِّ صلى الله عليه و سلم مَبْنِيَّةً عَلَى التَّواضُعِ والزُّهْدِ وَالاسْتِعْفَافِ, فَقَدْ قَالتْ عَائشةُ رَضِي الله عَنْهَا: «تُوَفِّيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ

شَيْءٍ يَأكُلُه ذُو كَبِدٍ إِلَّا شِطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأكلْتُ مِنْه حَتَّى طَالَ عَليَّ، فَكِلْتُه فَفَنِي»[متَّفَقٌ عليْهِ].
وَذكرَ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ رضي الله عنه مَا أصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيا فَقالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ»[رَواهُ مسْلِم].

وَالدَّقْلُ:هَوَ رَدِيء التمْرِ.
وَعَنْ أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوارِيه إِبطُ بِلَالٍ»[رَواه التِّرمذِيُّ وَقَالَ: حسنٌ صحيحٌ].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضي اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم يَبيتُ اللَّيالِيَ المتَتابِعةَ وَأهلُه طاوِينَ لَا يَجِدُون عَشاءً وإنَّما كَان أكثرُ خُبزِهِمُ الشَّعيرَ»[رواهُ الترمذيُّ وَقَال: حَسَنٌ صحيحٌ].
وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ, وَلَمْ يَأْكُلْ خَبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ»[رواه البخاريُّ].

وَكَانَ صلى الله عليه و سلم يجْلِس عَلى الحصِيرِ وَيَنَامُ عَلَيْهِ، فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: دَخلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ. قَالَ: فَجلَسْتُ, فَإِذَا عَلَيهِ إِزَارُه، وَلَيْس عَلَيْهِ غَيرُه, وَإِذَا الحصِيرُ قَدْ أَثَّر فِي جَنْبِه صلى الله عليه و سلم، وَإِذا أَنَا بقبْضَةٍ مِن شَعيرٍ نَحوِ الصَّاعِ، وقَرَظٍ[١٣]فِي نَاحِيةٍ فِي الغُرْفَةِ, وَإِذَا إِهَابٌ[١٤]مُعلَّقٌ، فَابتَدَرتْ عَيْنَايَ. فَقَالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟»فَقُلتُ: يَا نبيَّ اللهِ! وَمَا لِي لَا أبْكِي, وَهَذَا الحصِيرُ قَدْ أثَّر في جَنْبِكَ, وَهَذِهِ خِزانتُك لَا أرى فِيها إِلَّا مَا أرَى، وَذاك كِسْرى وَقيْصرُ فِي الثِّمارِ والأنْهارِ, وَأنتَ نبيُّ اللهِ وصَفْوتُه, وَهَذِهِ خزَانتُك! فَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟»[رواهُ ابْن مَاجَه وصحَّحه المنذريُّ].

١٣ قرظ: حبٌّ معروفٌ كالعدَسِ يخرُج من شَجرِ العضَاه.
١٤ إهابٌ: جِلد.

أُسُس بِنَاءِ الدّوْلَة

دَخَلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم المدينةَ, فَتَلَقَّاهُ أَهْلُها بالبِشْرِ والتِّرْحَابِ، وَكَانَ صلى الله عليه و سلم لَا يَمرُّ بِدَارٍ مِنْ دُورِ الأنْصَارِ إِلَّا أَخَذَ صَاحِبُها بِخِطَامِ رَاحِلتِه وَدَعَاهُ إِلَى النُّزولِ عِنْدَهُ، فَكَانَ صلى الله عليه و سلم يعْتَذِرُ إليهِمْ وَيَقُولُ: خَلُّوا سبيلَها فإنَّها مَأمُورةٌ, فَلَمْ تَزلِ النَّاقةُ سَائِرةً بِهِ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى مَوْضِعِ مَسْجِدِهِ فبرَكتْ, ثُمَّ نَهضَتْ، فَسارتَ قَليلاً, ثُمَّ رجعَتْ إِلَى الموْضِعِ الأوَّلِ فَبركَتْ, فَنزلَ النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم عَلى أَخْوالِه فِي بَنِي النَّجَّارِ، وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «أَيُّ بُيوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟»فَقَالَ أَبُو أيُّوبَ: أَنَا يَا رسُولَ اللهِ. فَنَزَلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم عَلَى أَبِي أيُّوبَ الأنْصَارِيِّ رضي الله عنه.

كَانتْ أَوَّلُ خُطوَةٍ خَطَاهَا رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم بَعْدَ قُدُومِه إِلى المدِينةِ هِي بِنَاءُ المسْجِدِ النَّبويِّ, وَذَلِكَ فِي المكَانِ الَّذِي بَركَتْ فِيه نَاقَتُه، وَكَانَ لغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ اشْتَراهُ مِنْهُمَا، واشْتَرك صلى الله عليه و سلم فِي بِنَاءِ المسْجِدِ بنفْسِهِ، ثُمَّ بَنى صلى الله عليه و سلم حُجُراتِ أَزْواجِه إِلى جَانِبِ المسْجِدِ, وَلما اكْتَملَ بِنَاءُ الحجُرَاتِ تَرَكَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم دَار أَبِي أَيُّوبَ وانْتَقَلَ إِلى تِلكَ الحجُرَاتِ. وَشرَّعَ الْأذانَ ليجْتَمِعَ النَاسُ مَتى حَانَ وقتُ الصَّلاةِ.

ثُمَّ آخَى النبيُّ صلى الله عليه و سلم بينَ المُهَاجرينَ والأنْصَارِ، وَكَانُوا تِسْعِينَ رَجُلاً؛ نِصفُهمْ مِنَ المُهاجرينَ, وَنِصْفُهمْ مِنَ الأنْصَارِ؛ آخَى بينهُمْ عَلَى المواسَاةِ, يَتوارَثُونَ بَعْدَ الموْتِ دُونَ ذَوِي الْأرْحَامِ إِلى حِينِ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَلَمَّا أَنْزلَ اللهُ: ﴿اَلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، رُدَّ التوارثُ إِلى الرَّحِمِ دُونَ عَقْدِ الأُخُوَّةِ.

وَوادَعَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم مَنْ بِالمدِينةِ مِنَ اليهودِ، وكتبَ بينهُ وبينهُم كِتابًا، وَبَادرَ حَبْرُهم وعالمُهُمْ عبدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ فَدَخَلَ فِي الإِسْلَامِ, وَأَبَى عَامَّتُهم إِلَّا الكُفرَ([١٥]).

وَنَظَّمَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم العِلَاقَاتِ بَين سُكَّانِ المدِينةِ مِنَ المهاجِرينَ والأنْصَارِ

١٥ زادا المعاد (٦٣/٣, ٦٥).

وَاليهودَ وذكرت بعض كُتبِ السِّير أَنَّهُ كتَبَ فِي ذلكَ وَثِيْقَةً كَانَ مِنْ بُنُودِهَا:

* إِنَّ المؤمِنينَ مِنَ المهَاجِرينَ والأنْصَارِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُون النَّاسِ.

* وَإِنَّ المؤمِنينَ لَا يتْركُون مُفْرَحًا([١٦])بَينهم أَنْ يُعطُوه بالمعْروفِ.

* وَإِنَّ المؤمِنينَ المتَّقِينَ أَيدِيهمْ عَلى كُلِّ مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوِ ابْتَغَى دَسِيعةَ ظُلمٍ, أَوْ إثمًا, أَوْ عدوانًا, أَو فسادًا بينَ المؤمِنينَ، وَإِنَّ أَيدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا, وَلَوْ كَان وَلدَ أَحدِهِمْ.

* وَلا يقْتلُ مُؤمنٌ مَؤْمنًا فِي كافرٍ، وَلَا ينْصُر كَافرًا عَلى مُؤمنٍ.

* وَإِنَّ ذمَّةَ اللهِ واحدةٌ, يُجِيرُ عَليهِمْ أَدْناهُمْ, وَإِنَّ المؤمِنينَ بَعضُهُمْ مَوَالِيَ بعضٍ دُونَ النَّاسِ.

* وَإِنَّ مَنْ تَبعَنا مِنْ يَهودَ، فَإِنَّ لَه النصرَ والأُسوةَ, غَيْرَ مَظْلومِينَ، وَلَا مَتَنَاصَرٍ عَليهِمْ.

* وَإِنَّ سِلْمَ المؤمنينَ وَاحِدةٌ، لَا يُسالمُ مؤمنٌ دُون مؤمنٍ فِي قِتالٍ فِي سَبيلِ اللهِ إِلَّا عَلى سواءٍ وعدلٍ بينَهمْ.

* وَإِنَّه مَهمَا اختلفْتُم فِي شيءٍ فَإِنَّ مَردَّه إِلَى اللهِ وَإِلَى مُحمَّدٍ صلى الله عليه و سلم.

* وَإِنَّ يهودَ بَني عَوفٍ أُمَّةٌ معَ المؤمنينَ, لليهودِ دِينُهُمْ, وللمسلمِينَ دينُهُمْ, مَوَالِيهمْ وأنفُسُهُم إِلَّا مَنْ ظَلمَ نَفْسَه وَأَثِم فإنَّه لَا يوتِغُ([١٧])إِلَّا نفسَه وأَهْلَ بَيتِه.

* وَإِنَّ بِطَانَةَ يهودَ كأنفُسِهِمْ, وَإِنَّه لا يُخرِجُ مِنْهُم أحدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و سلم.

* وَإِنَّ الجارَ كالنفْسِ, غَيرَ مُضارٍّ وَلَا آثِم.

---

١٦ المفرح: المثقل بالدين والكثير العيال.

١٧ وتغ: يهلك.

* وَإِنَّه لَا تُجارُ حُرمةٌ إِلَّا بِإِذنِ أهلِها.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن بُنودِ هَذهِ الصَّحيفَةِ الَّتي نظَّمتْ قَوَاعِدَ التَّعايُشِ بَينَ الطَّوائِفِ الموجُودَةِ بالمدِينَةِ, وَالَّتِي حَدَّدتْ مَفْهُومَ الأمَّةِ الإسْلَامِيَّةِ الَّتي تضمُّ المسلمِينَ جَميعًا, وَالدَّوْلَةَ الإسلاميَّةَ وَهِيَ المدينةُ النَّبويةُ, وَجعلتْ المرْجِعِيَّةَ العُليا للهِ ورسولِه صلى الله عليه و سلم وبخاصَّةٍ عِنْدَ مَوَارِدِ الخِلَافِ وَالنِّزَاعِ.

وَهَذِهِ الصحيفةُ أَيضًا صَانتْ الحُرِّيَّاتِ كَحُرِّيةِ العَقِيدَةِ وَالعِبَادَةِ وَحَقَّ الأمْنِ لكلِّ إِنْسانٍ.

كَمَا أَنَّها أقرَّتْ مَبْدَأ المسَاوَاةِ وَالعَدْلِ بَين النَّاسِ جَميعًا.
إِنَّ المتأمِّلَ فِي بُنودِ هَذهِ الوثِيقَةِ يَجِدُ فِيها كَثيرًا مِنَ المبَادِئِ الحضَارِيَّةِ الَّتي يُنَادِي بها المهتمُّون بحقُوقِ الإِنْسانِ فعَلى أنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم هُوَ أوَّلُ مَنْ رَسمَ مَعالِمَ تِلكَ الحقُوقِ ونظَّمَ قَواعِدَها وفْق شَرْعِ اللهِ تَعالى المتمثِّلِ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ, وَهَذَا هُو الحدُّ الفَاصِلُ بَينَ حُقُوقِ الإِنْسَانِ العَادِلةِ وَبَيْنَ مَا تدْعُو إِليهِ المنظَّماتُ الدَّوليةُ مما يزْعمُون حُقوقًا وَهُو فِي الحقِيقَةِ عُقوقٌ وَظُلمٌ وامتِهانٌ لكرامَةِ الإِنْسانِ وانْحِيازٌ لبعْضِ الفِئاتِ عَلَى حِسابِ البَعْضِ الآخَرِ.

شَجَاعةُ النّبيّ صلى الله عليه و سلم

كَانَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم أشجعَ النَّاس، يدلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّه قَامَ فِي وجْهِ الكفْرِ وَحدَهُ، يدعُو إلى التوْحِيدِ وَإِخْلاصِ العِبادَةِ للهِ تَعَالى، فتصدَّى لهُ أَهْلُ الكفْرِ جميعًا، وَحَارَبُوه عَنْ قَوْسٍ وَاحدةٍ, وَآذَوْه أشدَّ الإيذَاء, وتآمَرُوا عَلى قتلِه مِرَارًا, فَلَمْ يُرْهِبْه ذَلِك، وَلَم يُلِنْ لَهُ قناةً, بَل زَادَه إِصْرَارًا عَلَى دعوَتِه, وتمسُّكًا بالحقِّ الَّذِي مَعه. وَقَالَ فِي إباءٍ وشُموخٍ مُتحدِّيًا طَواغِيتَ الأرْضِ: «وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ, حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ».

وَعَنْ أَنس بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه قَال: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكانَ أَجودَ النَّاسِ, وَكانَ أَشْجَع النَّاسِ، ولقَدْ فَزِعَ أهلُ المدِينةِ ذَاتَ ليلةٍ, فَانْطَلَق ناسٌ قِبَل الصوْتِ, فتلقَّاهُمْ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم رَاجِعًا، وَقَدْ سَبقهُمْ إِلَى الصَّوْتِ, وَهُو عَلى فَرَسٍ لأبي طَلْحةَ عُرْيٍ، فِي عُنقِه السيفُ، وَهُوَ يقُول: «لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُراعُوا»[مُتَّفقٌ عليه] أَيْ لَا تَخَافُوا, لَا تَخَافُوا.

قَال النَّوويُّ: وَفِيه فَوَائِدُ: مِنْهَا بيانُ شجاعتِه صلى الله عليه و سلم مِنْ شِدَّةِ عَجَلتِه فِي الخُروجِ إلى العدوِّ, وَقَبْلَ النَّاسِ كُلِّهم، بحيثُ كَشفَ الحالَ، وَرَجَعَ قَبْل وُصول النَّاسِ.

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا يومَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، إِذْ عَرضَتْ كُديةٌ

([١٨])شَدِيدةٌ. فَجاءُوا بالنبيِّ صلى الله عليه و سلم فَقَالُوا: هَذِهِ كُديَةٌ عَرضَتْ فِي الخَنْدقِ. فَقالَ صلى الله عليه و سلم: «أَنَا نَازِلٌ»ثُمَّ قَام، وبطنُه معصوبٌ بحجَرٍ، ولبثْنَا ثلاثةَ أَيَّام لا نذُوقُ ذَوَاقًا, فأخذَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم المعْوَلَ، فَضربَ في الكُديةِ، فَعاد كثيبًا أَهْيَل أَوْ أَهْيمَ»[رواه البخاريُّ]والمعنَى أَنَّ هذهِ الصخرَةَ الصُّلْبَةَ, الَّتي لَم يستَطعْ الصَّحابةُ كَسْرَها، تَحوَّلتْ إلى كَثيبٍ مِنَ الرَّمْلِ المبعْثَرِ لشدَّةِ ضَرْبَةِ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم وَهَذا دَليلٌ عَلى قُوَّتِه صلى الله عليه و سلم.

١٨ كدية: صخرة صلبة.

وَقَدْ كَان عليهِ الصلاةُ والسلامُ مِنَ الشَّجاعَةِ وَالْإِقدَام والثَّباتِ أَمامَ الْأَهْوَالِ فِي أَشُدِّها، بِالمكَانَةِ العُلْيَا الَّتِي لَا يُدَانِيهِ فِيها أَحَدٌ، وَلَا يَعْلَمُ مِقْدارَ سُمُوِّهَا إِلَّا مَن وَهبَها لَه جلَّتْ قُدرَتُه.

وَلهذَا حَضَر النبيُّ صلى الله عليه و سلم مَا حَضرَ مِن الغَزوَاتِ فِي كلِّ حَياتِه الجِهَادِيَّةِ, وَمَا حُفظَ عَنه مَرَّةً أَنَّه هَمَّ بالتأَخُّرِ عَنْ مَقَامِهِ قَدَمًا أو أُصْبَعًا, الأمْرُ الَّذي جَعله بَينَ أَصحَابِهِ مِلءَ العُيونِ والصُّدورِ، قَائدًا مُطاعًا يَبتَدِرُ الصغيرُ مِنْهم والكبيرُ إِشارتَهُ, لَا لأنَّه رسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم فَقَطْ، بَلْ ولما كَانُوا يَرَون مِنْه مِنَ الشَّجَاعَةِ الَّتِي كَانُوا يَرَوْنَ أنفُسَهُمْ بِالنِّسبةِ لَها عَدمًا صِرْفًا، مَع أَنَّ فِيهِمُ الأبْطالَ الَّذِينَ كَانتْ تُضرَبُ بشجَاعَتِهِمُ الأمْثَالُ([١٩]).

وَفِي هَذا قالَ عَليُّ بنْ أبي طالبٍ رضي الله عنه: كُنَّا إِذَا احمرَّ البأْسُ، ولَقِيَ القومُ القومَ, اتَّقيْنا برسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم، فَما يَكُونُ مِنَّا أَحدٌ أَدْنَى إِلَى العدوِّ مِنْهُ. [رَوَاهُ أَحْمدُ وَالنِّسائيُّ].

وَقَالَ عليٌّ أَيضًا: «لَقَدْ رأيتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ, وَنَحْنُ نَلُوذُ بالنَّبيِّ صلى الله عليه و سلم، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلى العَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا»[رَواه أحمدُ].

وَفِي غزوَةِ أُحدٍ تَقدَّم اللعينُ أُبيُّ بْنُ خلَفٍ عَلى فَرسِه يُريدُ قتلَ النبيِّ صلى الله عليه و سلم ويقُولُ: أيْ مُحمَّدُ! لَا نجوْتُ إِن نجوْتَ. فَقالَ القومُ: يَا رسولَ اللهِ! أَيعطِفُ عَليه رجلٌ مِنَّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «دَعُوه»فَلَمَّا دَنَا، تَنَاوَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم الحربةَ مِنَ الحارثِ بْنِ الصِّمَّةِ، فَانتفَضَ بِها انتفاضَةً, تَطايَرَ الصَّحابةُ رَضي اللهُ عَنْهمْ لَها، ثُمَّ استقبَلَهُ صلى الله عليه و سلم فطَعَنهُ فِي عُنُقِه طَعنةً تَدَأْدَأَ مِنها عَنْ فَرسِه مِرارًا –أَيْ تقلَّب وتدحْرَج –فَرجَع إِلى قُرَيْشٍ يَقُولُ: قَتلَنِي مُحمَّدٌ, وَهُمْ يقولُونَ: لَا بأْسَ عليْكَ. فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ بِجَمِيعِ النَّاسِ لقَتَلَتْهُمْ, أَلَيْس قَد قَال: أَنَا أَقْتُلك, واللهِ لَو بَصَقَ عَليَّ لقتَلنِي. فَماتَ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِه([٢٠]).

١٩ محمد ٣الإنسان الكامل ص(١٨٨, ١٨٩).
٢٠ السيرة النبوية لابن هشام (١٧٤/٣).

وَفِي غَزْوَةِ حُنين فرَّ المسلِمُون حِين باغتَتْهم هَوازِنُ بالسِّهامِ وَثبتَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم فِي وَجْهِ العدوِّ وَهُوَ يقول:

أَنَـا النَّبِيُّ لَا كَـذِبْ أَنَـا ابْـنُ عَبْـدِ المطَّلِبْ([٢١]).

فَاللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّم على نبيِّك وَحَبيبِكَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و سلم وَاجْمعْنا بِهِ في دارِ كَرامَتِك, واسْقِنا مِنْ يَدِهِ الشَّرِيفةِ شَرْبَةً هَنيئةً لاَ نَظْمأُ بَعْدَها أَبدًا.

٢١ انظر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (١٣٤١/٣).

غَزْوةُ بَدْرٍ الكُبْرَى

فِي رَمضانَ مِنَ السَّنةِ الثَّانيةِ وَقعتْ غَزوةُ بَدْرٍ الكُبْرَى، وَسببُها أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم خرجَ ومعهُ ثلاثُمائةٍ وَثَلاثَةَ عَشرَ رَجُلاً ليعترِضَ عِيرًا عظِيمةً لِقريْشٍ وَهِيَ رَاجِعَةٌ مِنَ الشَّامِ. وَكَانَ أبُو سُفيانَ قَائدُ هَذه القافلةِ فِي غايةِ التيقُّظِ والحذَرِ, فَكَانَ يَسألُ كُلَّ مَنْ لَقِيَهُ عَن تحرُّكَاتِ المسْلِمِينَ, حَتَّى عَلِم بخرُوجِهِمْ مِنَ المدينةِ, وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ بَدْرٍ، فَحوَّل اتِّجاهَ العِيرِ إِلى الغَرْبِ ليسْلُكَ طَرِيقَ السَّاحِلِ، وَيَتْرُكَ طَرِيقَ بَدْرٍ المحفُوفَ بالخَطَرِ، ثُمَّ أَرْسَل رَجُلاً يُخبِرُ أَهْلَ مَكَّةَ بأَنَّ أموَالَهُمْ فِي خَطرٍ وَأَنَّ المسْلِمينَ قَدْ استعدُّوا للهُجُومِ عَلَى القَافِلَةِ.

فَلَمَّا بَلَغَ أَهْلَ مَكَّةَ ذَلك هَبُّوا لنجْدَةِ أَبِي سُفْيَانَ، وَلَمْ يتخلَّفْ مِن كُبَرائِهم إِلَّا أَبُو لهبٍ, وَحشدُوا مَنْ حَولَهمْ مِنَ القَبَائِلِ وَلَم يتخلَّفْ مِنْ بُطونِ قريشٍ إِلَّا بَنُو عَدِيٍّ.

وَلما وَصَلَ هَذا الجيشُ إِلَى الجحْفةِ عَلِمُوا بنجَاةِ أَبِي سُفيانَ وَأَنَّه يطلُبُ مِنهُم العودةَ إلى مكَّةَ. وَهمَّ النَّاسُ بالرُّجوعِ إِلَّا أَنَّ أَبَا جهلٍ حَثَّهم عَلَى المضيِّ قُدُمًا للقِتَالِ، فَرَجَع بِنُو زَهْرَةَ وَكَانُوا ثلاثمائةٍ, وَوَاصَلَ البقيةُ المسِيرَ وَكَانُوا ألفًا حَتَّى نَزَلُوا خَارِجَ بَدْرٍ فِي مَكانٍ فَسيحٍ وَرَاءَ الجِبَالِ المحِيطَةِ بِبدْرٍ.

أَمَّا رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم فاستَشَارَ أصحَابَه، فَوَجَدَ مِنْهم العزْمَ والتصْمِيمَ عَلَى القِتَالِ وَالتضْحَيةِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، فَسُرَّ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم، وَقَالَ لَهُمْ: «سِيْرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ الآنَ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ».

وَتَقَدَّم النبيُّ صلى الله عليه و سلم ونَزل قَريبًا مِنَ العُدْوةِ الدُّنْيَا فِي بَدْرٍ, فَأَشَارَ عَلَيْهِ الحُبَابُ بْنُ المنذِرِ أَنْ يتقدَّم فينزِلَ عَلَى أَقْرَبِ مَاءٍ مِن العدُوِّ، بحيثُ يجمَعُ المسلِمونَ الماءَ فِي حِياضٍ لأنفُسِهِمْ, وَيُغَوِّرُونَ بَقيةَ الآبَارِ، فَيبقَى العدوُّ وَلَا ماءَ لَه, فَفَعَلَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم مَا أشارَ بِهِ الحُبَابُ.
وَباتَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم ليلةَ الجمُعةِ –وَهِيَ ليلةُ بَدرٍ –سَابعَ عَشرَ مِن رَمضَانَ قَائمًا يُصلِّي وَيَبْكِي وَيدْعُو اللهَ ويستَنْصِرُه عَلَى أعدائِهِ.

وَفي المسْندِ عَنْ عليّ بْن أَبي طالب قَالَ: لَقَدْ رأيتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ إِلَّا رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم تَحتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي ويبْكِي حَتَّى أَصبَحَ.

وَفِيه أيضًا قَالَ: أَصابَنا طَشٌّ مِن مَطر –يَعني ليلةَ البَدْرِ –فانطلقْنَا تَحتَ الشجَر والحجف نَسْتَظِلُّ بِهَا من المطر, وَبَاتَ رسول اللهِ صلى الله عليه و سلم يدعُو ربَّه ويقولُ: «إنْ تَهْلِكَ هذه الفئةُ لَا تُعْبَد»، فَلَمَّا أَنْ طَلَعَ الفجرُ نَادَى: «الصَّلاة عِبادَ الله»! فجاءَ النَّاسُ مِنْ تحتِ الشَّجَرِ والحجف، فَصَلّى بِنَا رَسُول اللهِ صلى الله عليه و سلم وَحثَّ عَلى القِتَالِ.
وَأمدَّ اللهُ تَعَالى نبيَّه والمؤمنينَ بنَصْرٍ مِنْ عِنْده، وَبِجُنْدٍ مِنْ جُنده كما قَالَ تَعَالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[الأنفال: ٩ -١٠].

وَقَالَ تَعَالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الأنْفَال: ٧١].
فابتَدأَ القِتَالُ بالمبَارَزَةِ فَقَتَل حمزةُ شَيْبَةَ بْنَ ربيعةَ, وَقَتل عليُّ بْنُ أَبي طالب الوليدَ بْنَ عُتْبَة، وجُرِحَ عتبةُ بْنُ ربيعةَ مِن المشْرِكين وَعُبيْدَةُ بْنُ الحارث مِنَ المسْلِمينَ.

ثُمَّ بَدأ القِتَالُ واشتَدَّ، وَحمِي الوطِيسُ, وَأيَّد اللهُ المسلمِينَ بالملائكةِ تُقَاتِلُ دُونَهم وتثبِّتُ قُلوبَهمْ, وَمَا هِي إلا سَاعةٌ حَتَّى هُزِم المشْرِكُونَ وَولَّوا الدُّبُرَ، وتَبعَهمُ المسْلِمونَ يَقتُلُونَ وَيأسِرُونَ, فَقُتِل مِنَ المشركينَ سَبعونَ، مِنْهم: عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ, وَأميَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَابْنُه عَلِيٍّ, وَحَنْظَلَةُ بْنُ أَبي سُفْيانَ وَأَبُو جَهْلِ بْنُ هِشامٍ وَغيرُهُمْ.
وَأُسِر مِنَ المشركين سَبْعونَ.

وَكَانَ مِن نَتَائِجِ غَزوَةِ بَدْرٍ أَنْ قَويتْ شَوكَةُ المسْلِمينَ, وَأصْبَحُوا مَرْهُوبِينَ في المدِينَةِ وَمَا جَاوَرَهَا, وَازْدَادَتْ ثِقَتُهُم باللهِ تَعالَى، وَعَلِمُوا أَنَّ اللهَ يَنْصُرُ عِبادَه المؤمنينَ وَلَو كَانُوا قِلَّةً عَلَى الكافرينَ وَلَو كَانُوا كَثْرَةً، وَمِنَ النَّتائجِ أيْضًا أنَّ المسلمينَ اكْتسبُوا مَهَاراتٍ قِتاليةً, وَتعلَّمُوا أَسَالِيبَ جَدِيدةً فِي القِتَالِ وَالكرِّ والفرِّ وَحِصارِ العدوِّ وَحِرْمَانِهِ مِنْ أَسْبَابِ القُوَّةِ وَالاسْتِمْرَارِ فِي المَواجَهَةِ.

غـــزوَةُ أُحُـــد

وَفِي شَوَّالٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ مِنَ الهِجْرَةِ وَقَعَتْ غَزوَةُ أُحد، فَإِنَّه لمّا قَتَلَ اللهُ أشْرافَ قُرَيْشٍ ببدْرٍ، وَأُصِيبوا بمصِيبةٍ لَم يُصَابوا بمثْلِها، أَرَادَتْ قُرَيشٌ الثأْرَ وَاستِعادةَ هَيبَتِهِمُ الَّتِي فَقَدُوها، فَأخذَ أَبُو سُفيانَ يُؤَلِّبُ عَلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَعَلَى المسْلِمِينَ، ويُجمِّع الجمُوعَ، فَجَمَع قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ قُرَيْشٍ, والحلَفاءِ والأَحَابِيشِ، وَجَاءُوا بِنِسائِهِم لَئلَّا يَفرُّوا, وَلْيُحامُوا عَنهُنَّ, ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِمْ نَحوَ المدِينةِ, فَنَزَلَ قَرِيبًا مِنْ جَبلِ أُحُدٍ.

وَاستَشارَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم أَصْحابَهُ أَيخْرُجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يمْكُثُ فِي المدِينَةِ؟ وَكَانَ رَأْيُه أَلاَّ يَخْرُجوا مِنَ المدِينَةِ, وَأَنْ يَتحصَّنُوا بِهَا، فَإِنْ دَخلُوهَا قَاتَلَهُمْ المسلِمُونَ, وَلَكِنَّ جماعةً مِنْ فُضَلاءِ الصَّحَابَةِ أَشارُوا بالخرُوج فَخَرَجَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِي أَلْفٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وكان ذلكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ المدِينَةِ وَأُحُدٍ رَجعَ عَبدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ المنافقُ بنَحْوِ ثُلُثِ العَسْكَرِ وَقَالَ: تُخَالِفُنِي وَتَسْمَعُ مِنْ غَيْرِي؟ وَنَفَذَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم حَتَّى نَزَلَ الشِّعبَ مِن أُحُدٍ، وَجَعَلَ ظَهْرَه إِلى أُحُدٍ، وَنَهى النَّاسَ عَنِ القِتَالِ حَتَّى يأمُرَهُمْ، فَلَمَّا أَصبَح يَوْمَ السَّبْتِ تَعبَّى لِلْقِتَالِ وَهُوَ فِي سبْعِمائةٍ, فِيهِمْ خَمسونَ فَارِسًا.

وَاستعْملَ عَلَى الرُّماةِ –وَكَانُوا خَمسِينَ– عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ، وَأَمرَهُ وَأصحَابَه أَنْ يَلْزَمُوا مَرْكزَهُمْ, وَأَلَّا يُفَارِقُوه, وَلَوْ رَأى الطَّيْرَ تَتَخَطَّفُ العسْكرَ، وَكَانُوا خَلفَ الجيْشِ, وَأمرَهُمْ أَنْ يَنْضَحُوا المشرِكينَ بالنَّبْلِ؛ لئلَّا يأتُوا المسْلِمينَ مِنْ وَرَائِهِمْ.
وَبدأَ القِتَالُ وَكَانَ النَّصْرُ أَوَّلَ النَّهارِ للمسْلِمِينَ عَلَى الكفَّارِ، فَانهزَمَ المشْرِكُونَ, ووَلَّوا مُدْبِرِينَ حَتَّى انتهَوْا إِلى نِسائِهِم، فَلَمَّا رَأَى الرُّماةُ هَزِيْمَتَهمْ تركُوْا مَركزَهُم الَّذِي أمرَهُم رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم بِحِفْظِهِ وَقَالُوا: يَا قَوْمِ! الغنِيمةَ, فذَكَّرهُمْ أميرهُم عَهدَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم فلَمْ يسمَعُوا, وَظَنُّوا أَنْ ليسَ للمُشْرِكينَ رَجْعةٌ, فَذَهَبُوا فِي طَلَبِ الغنِيمَةِ، وأَخْلَوا الثَّغْرَ, وكرَّ فرسَانُ المشْركينَ فَوَجَدُوا الثَّغْرَ خَالِيًا مِنَ الرُّمَاةِ، فجاوزُوا مِنْهُ، وَتَمَكَّنُوا حَتَّى أَقبَلَ آخرُهم, فَأحاطُوا بِالمسْلِمِينَ, فأكرَم اللهُ من أكْرَم مِنْهُمْ بالشَّهادةِ، وَتَوَلَّى الصحَابةُ, وخلَص المشركُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم, فَجرحُوا وجْهَه، وكسرُوا رُبَاعِيَّتَه اليُمنَى, وهَشَّموا البيضَة[٢٢]عَلى رأْسِه, وَرَمَوهُ بالحِجَارَةِ حَتَّى وَقعَ لشقِّه, وَسَقَطَ فِي حُفْرَةٍ

٢٢ البيضة: واحدة البيض من الحديد.

مِنَ الحفَرِ الَّتِي كَانَ أَبُو عامرٍ الفاسِقُ يَكِيدُ بِها للمسْلِمِينَ, فَأَخَذَ عليٌّ بِيَدِه، واحْتَضَنَهُ طَلْحَةُ ابْنُ عُبيدِ اللهِ. وقُتِل مُصْعَبُ بْنُ عُميرٍ بين يدَيْه، فَدَفَع اللِّواءَ إلى عَليِّ بْنِ أبي طالبٍ، ونشَبتْ حَلَقَتَانِ مِن حِلَقِ المغْفَرِ فِي وجْهِه فانتزعَهُما أَبُو عُبيدَةَ ابْنُ الجرَّاحِ، وامتصَّ مَالِكُ بْنُ سِنانٍ وَالدُ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ الدَّمَ مِنْ وجنَتِه, وأدْرَكَهُ المشْرِكُون يُرِيدُون ما اللهُ حَائِلٌ بَينَهُم وبينَهُ, فَحَالَ دُونَه نَفَرٌ مِنَ المسْلِمِينَ نَحْوُ عَشْرَةٍ حَتَّى قُتِلُوا, ثُمَّ جالَدَهُمْ طَلْحَةُ حَتَّى أَجْهضَهُمْ عَنْهُ، وَترَّس أَبُو دُجانَةَ عَلَيْهِ بِظَهْرِه، والنَّبْلُ يَقَعُ فِيه وَهُوَ لَا يتحرَّك, وأُصِيبتْ يومئذٍ عَيْنُ قَتَادَةَ بْنِ النُّعمانِ, فَأَتَى بِهَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم فَردَّها عَلَيْهِ بِيدِهِ، فَكَانَتْ أَصَحَّ عيْنَيْه وأَحْسنَهما.

وَصرخَ الشَّيْطانُ بِأَعْلَى صَوْتِه: إِنَّ مُحمَّدًا قَدْ قُتِل, وَوَقَع ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ المسْلِمِينَ, وَفرَّ أَكثرُهم, وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا.

وَأقبلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم نَحْوَ المسْلِمِينَ, وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ عَرفه تَحتَ المغْفَرِ كَعبُ بْنُ مَالِكٍ, فَصَاحَ بأَعْلَى صَوْتِه: يَا مَعْشَر المسْلِمِينَ أَبْشِرُوا هَذَا رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم، فَأَشَارَ إليهِ أَنِ اسْكُتْ, وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ المسْلِمُونَ, وَنَهضُوا مَعهُ إِلى الشِّعْبِ الَّذِي نَزَلَ فِيه وفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَليٌّ وَالحَارِثُ بْنُ الصِّمَّةِ الأَنْصَارِيُّ وغيرُهم, فَلَمَّا استَنَدُوا إِلَى الجَبَلِ أَدْرَكَ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم أُبَيُّ ابْنُ خَلفٍ عَلَى جَوَادٍ يُرِيدُ قَتْلَه, فَضَرَبَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم بحَرْبَةٍ فجاءَتْ فِي تُرْقُوَتِه, فكرَّ إِلَى قَومِه مُنهَزِمًا ثُمَّ مَاتَ فِي طَرِيقِ العَوْدَةِ إِلَى مَكَّة.

وَغَسَل النبيُّ صلى الله عليه و سلم الدَّمَ عَنْ وَجْهه، وَصَلَّى جَالِسًا لما به مِنَ الجِرَاحِ, وَقُتِلَ حَنظلَةُ, وَكَانَ جُنُبًا مِنَ امْرأَتِهِ فلمَّا سَمِعَ النِّدَاء أَجابَ قَبْلَ أَنْ يَغْتَسِل, فَغَسَّلَتْه الملَائِكَةُ، وَقَتَلَ المسْلِمُونَ حَامِلَ لواءِ المشْرِكِينَ وَقَاتَلَتْ أُمُّ عِمارةَ وَهِيَ نسيبةُ بِنْتُ كعبٍ المازِنِيَّةُ قِتالاً شَدِيدًا, وَضَرَبَها عَمْرُو بْنُ قَمِئة بالسَّيْفِ فَجرحَها جِراحًا شَدِيدًا.

وَكانَ عَدَدُ مَنْ قُتِل مِنَ المسْلِمِينَ سَبْعِينَ رَجُلاً وَنيِّفًا، وَقُتِل مِنَ المشْرِكِينَ ثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ وَقَد مَثَّلتْ قُرِيشٌ بقَتْلَى المسْلِمِينَ تَمثِيلاً فَظِيعًا.

وَمِمَّنْ قُتِلَ مِنَ المسْلِمِينَ حَمزَةُ عَمُّ الرَّسُولِ صلى الله عليه و سلم ([٢٣]).

٢٣ انظر: زاد المعاد (١٩٢/٣), وما بعدها. ولباب الخيار في سيرة المختار ص(٦٤)

الدُّروسُ المسْتَفادَةُ مِن وَقْعَةِ أُحُدٍ

ذَكَرَ ابْنُ القيِّم رَحِمهُ اللهُ فِي كِتابِ «زَادِ المعَادِ»كَثِيرًا مِنَ الحِكَمِ والغَاياتِ المحمُودَةِ المسْتفادَةِ مِن غَزْوَةِ أُحُدٍ وَهِي:

أَوَّلاً:تَعْرِيفُ المؤمِنينَ سُوءَ عاقِبَةِ المعْصِيَةِ, والفَشَلِ, والتَّنَازُعِ, وَأَنَّ الَّذِي أَصَابَهمْ إنَّما هُو بِشُؤْمِ ذَلِك، كَمَا قَالَ تَعالى: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: ٢٥١]، فلما ذاقوا عَاقِبَةَ مَعصِيَتِهمْ لِلرَّسُولِ وَتَنَازُعِهمْ وفشَلِهمْ، كَانُوا بَعدَ ذَلك أَشدَّ حَذرًا ويقظَةً.

ثَانيًا:أَنَّ حِكمَةَ اللهِ وَسُنَّتَهُ فِي رُسُلِه وَأَتْباعِهِمْ جَرتْ بَأَنْ يُدَالُوا مَرَّةً، وَيُدَالَ عَلَيْهِمْ أُخرى، لَكِنْ تكونُ لَهم العاقِبَةُ، فَإِنَّهمْ لَو انْتَصرُوا دَائمًا, دَخل مَعَهُمُ المؤْمِنونَ وَغيرُهم، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِنْ غَيْرِه.

ثالثًا:أَنْ يتميَّزَ المؤمِنُ الصَّادِقُ مِنَ المنَافِقِ الكَاذِبِ فَإِنَّ المسْلِمينَ لما أَظْهَرهُمُ اللهُ عَلَى أَعْدائِهم يومَ بَدْرٍ، وَطَارَ لَهمُ الصِّيتُ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي الإِسْلَامِ ظَاهِرًا مَنْ لَيس مَعَهُمْ فِيه بَاطنًا، فَاقتضَتْ حِكْمةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أَنْ سبَّبَ لِعِبَادِه مِحنةً مَيَّزَتْ بَين المؤمِنِ والمنَافِقِ، فأَطْلَعَ المنافِقُونَ رُؤوسَهُمْ فِي هَذه الغَزْوَةِ, وتكلَّمُوا بِما كَانُوا يكْتُمُونَه, وَعرفَ المؤْمِنُونَ أَنَّ لهمْ عَدُوًّا فِي نَفْسِ دُوْرِهم, فَاستعدُّوا لَهم, وتحرَّزُوا مِنْهُمْ.

رَابعًا:استِخْراجُ عُبودِيَّةِ أَوْليائِه وَحِزْبِه فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء, وَفِيما يُحبُّون وَما يكْرَهُون, وَفِي حَالِ ظَفَرِهِمْ وَظَفَرِ أَعْدَائِهِمْ بِهِم, فَإِذَا ثَبَتُوا عَلَى الطَّاعَة والعُبودِيَّةِ فِيما يُحبُّونَ وما يكْرَهُون فَهُمْ عَبيدُه حقًّا.

خَامسًا:أَنَّه سُبحَانه لَوْ نَصَرَهُمْ دَائمًا, وأَظْفَرهُمْ بعدُوِّهِمْ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ, وَجعلَ لَهمُ التمْكِينَ والقَهْرَ لأعدَائِهِمْ أَبدًا لطغَتْ نُفُوسُهمْ وَشمَخَتْ وارْتَفَعَتْ, فَلَا يُصْلِحُ عِبادَه إِلَّا السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ

وَالشِّدَّةُ والرَّخاءُ.

سَادِسًا:أَنَّه إِذا امتحنَهُمْ بالغَلَبةِ وَالكَسْرةِ والهزِيمة ذَلُّوا وانكَسرُوا وَخضَعُوا فاسْتوجَبوا مِنه العزَّ والنَّصْر.

سَابعًا:أَنَّه سبحانه هَيَّأَ لِعبادِه المؤمِنينَ مَنَازِلَ فِي دَارِ كرَامَتِه، لَم تبلُغْها أعمالُهمْ, وَلَمْ يكُونوا بَالِغِيهَا إِلَّا بالبَلَاءِ والمحْنَةِ، فَقيَّض لهمْ الأَسْبابَ الَّتي تُوصِّلُهم إِليها مِن ابْتِلائِه وامْتِحَانِه.

ثامنًا:أَنَّ النُّفوسَ تَكتَسِبُ مِنَ العَافِيةِ الدَّائِمةِ وَالنَّصْرِ والغِنَى طُغْيَانًا وَرُكونًا إِلى العَاجِلةِ، وَذَلِكَ مَرَضٌ يَعُوقُها عَنْ جَدِّها فِي سَيْرِها إِلَى اللهِ والدَّارِ الآخِرَةِ، فَإِذَا أَرَادَ بِها رَبُّها كرامَتَهُ قَيَّضَ لَها مِنَ الابْتِلَاءِ والامْتِحَانِ مَا يكُون دَواءً لِذلِكَ المرْضِ, فَيكُونُ ذَلِكَ البلاءُ والمحْنَةُ بمنْزِلَةِ الطَّبيب يَسقِي العلِيلَ الدَّواءَ الْكَرِيهَ، وَيَقْطَعُ مِنْهُ العُروقَ الموْلِمةَ لاسْتِخرَاج الأَدْواءِ مِنه، وَلَو تَرَكَهُ لَغلبتْه الأَهْواءُ حَتَّى يَكُون فِيها هَلَاكُه.

تاسعًا:أَنَّ الشَّهادَةَ عِنْدَه مِنْ أَعْلى مَرَاتِب أَوْلِيائِه, وَالشُّهداءُ هُمْ خَواصُّه والمقرَّبُونَ مِن عِبادِه, وَلَيْس بَعْدَ دَرجَةِ الصِّدِّيقيَّةِ إِلَّا الشَّهادَةُ، وَلَا سَبِيل إِلى نَيْلِ هَذِهِ الدَّرْجَة إِلَّا بتقْدِير الْأَسْبَابِ المفْضِيَة إِلَيْها مِنْ تَسْلِيط العدوِّ.

عَاشِرًا:أَنَّ اللهَ سُبحانَه إِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِك أَعْداءَه وَيَمْحَقَهُمْ قَيَّض لَهمُالأَسْبَابَ الَّتِي يَستوْجِبُون بِها هَلاكَهُمْ ومَحْقَهم، وَمِنْ أَعظَمِها بَعْدَ كُفْرِهِم: بَغْيُهم وَطُغْيَانُهم, ومبالَغَتُهم فِي أَذَى أَوْلِيائِه، وَمحارَبَتُهمْ وقِتالهُمْ, وَالتسَلُّطُ عَلَيهِمْ, فَيتمحَّصُ بِذلك أَوْلِياؤُه مِنْ ذُنوبِهِمْ وَعُيُوبِهِمْ, وَيَزْدَاد بِذَلك أَعْدَاؤُهُ مِنْ أَسْبَابِ مَحْقِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ([٢٤]).

٢٤ زاد المعاد (٣/٢١٨ – ٢٢٢) باختصار.

رِفْقُ النّبِيّ صلى الله عليه و سلم بأُمّته(١)

كَانَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم رَفِيقًا بأمَّتِه, فَلَمْ يُخيَّر بَينَ أمريْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا, تَيْسِيرًا عَلَى الأُمَّةِ وَرَغبةً في رفعِ الحرجِ عَنْهَا, وَلِذَلِكَ قَالَ صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا, وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»[رواه مسلم].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ, وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»[رَواهُ أَبُوداودَ وصحَّحَه الألبانيُّ].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا نُزِّعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانه»[رَواهُ مسْلِم].

وَقَدْ وَصفَ اللهُ تَعَالَى نَبيَّه صلى الله عليه و سلم بالرأفَةِ وَالرَّحمةِ فَقَالَ: لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ[التَّوبة: ٨٢١].

وَمِنْ رِفقِه صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه أَنَّ رَجلاً جَاء إِلى النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم فَقَالَ: هَلَكْتُ يَا رَسولَ اللهِ!

قَالَ: «وَمَا أَهْلَكَكَ؟».

قَالَ: وقعْتُ علَى امْرأتِي فِي رَمضانَ.

قَالَ: «هَلْ تَجِدُ مَا تَعْتِقُ رَقَبةً».

قَالَ: لَا.

قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟».

قَالَ: لَا.

قَالَ: «فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا».

قَالَ: لَا.

قَالَ: ثُمَّ جَلَسَ فَأُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بِعَرَقٍ([٢٥])فِيه تمرٌ، فقال: «تَصَدَّقْ بِهَذَا».

قَالَ الرَّجل: أَأَفْقَرُ مِنَّا؟ فَما بين لابَتَيْها أهلُ بيتٍ أحوجُ إِلَيْهِ مِنَّا. فضحِكَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم حَتَّى بدتْ أنيابُه, ثُمَّ قَالَ: «اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»[متفقٌ علَيْه].

فانْظُر إِلَى رِفق النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم بِهذَا الرَّجُلِ المخْطِئ الَّذِي وَقَعَ عَلَى أهلِهِ فِي نَهارِ رَمضانَ, فَإِنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم مَا زالَ يُرفقُ بِه ويتدرّجُ مَعه من العُقوبةِ الأشدِّ إِلى العقوبةِ الأخفِّ، حَتَّى وصلَ به الحالُ إِلَى أَنْ أَعطاهُ مَا يُكَفِّرُ بِهِ عَنْ خَطِئِه, بَلْ إِنَّه سمَحَ لَهُ بأنْ يأخُذَ هَذه العطيَّةَ ويُطعِمَها أهلَه نَظَرًا لحاجَتِه وفقْرِه، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الرِّفْقَ النبويَّ، وَمَا أجملَ هَذِهِ الرأفةَ المحمَّديةَ.

وَهَذَا مُعاوِيةُ بْنُ الحَكَمِ السُّلَمِيُّ رضي الله عنه يقُول: بَينما أَنَا أُصَلِّي مَع رسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم، إِذْ عَطسَ رَجلٌ مِنَ القوْمِ, فَقلْتُ: يرْحَمُكَ اللهُ. فَرَماني القوْمُ بأبْصارِهِمْ, فقلْتُ: واثُكْلَ أُمِّياه! مَا شأْنُكم تَنظُرُونَ إِليَّ؟ فجَعلُوا يضْرِبُون بأيدِيهِمْ عَلَى أفْخاذِهِمْ، فَلَمَّا رأيتُهم يُصَمِّتونَني, لَكِنِّي سَكتُّ، فَلَمَّا صَلى النبيُّ صلى الله عليه و سلم، فَبِأبي هُو وأمِّي، مَا رأيتُ مُعلِّمًا قبْلَه ولا بعْدَه أَحسنَ تَعْلِيمًا مِنْه، فَوَاللهِ مَا كَهرني([٢٦])، وَلَا ضَرَبَني, وَلَا شَتمنِي, قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[رَوَاهُ مُسْلِم].

قَال النوويُّ: «فِيهِ مَا كانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم مِنْ عَظِيمِ الخُلُقِ، الَّذِي شهِدَ

٢٥ العَرَقُ: الزنبيل أو القفة.
٢٦ كهرني: نهرني.

اللهُ تَعَالى لَهُ بِه، وَرِفْقِه بالجاهِل، ورأفَتِه وشفقَتِه عَلَيْه، وَفِيه التخلُّقُ بخُلُقِه صلى الله عليه و سلم فِي الرِّفْقِ بالجَاهِل، وحُسْنِ تَعلِيمِه, واللُّطْفِ بِهِ، وَتقْرِيبِ الصَّوابِ إِلَى فَهْمِه».

وَمِنْ رِفْق النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه أَنَّه نَهَى عَنِ الوِصَالِ فِي الصَّوْمِ خَشْيَةَ أَنْ يُفْرضَ عَلَى النَّاسِ.

وَمِنْ رِفْق النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه, أَنَّه صلَّى قِيامَ رَمضانَ فِي المسْجدِ ثَلاثَ لَيالٍ أَوْ أكثرَ، حَتَّى اجْتَمع خَلْفَه نَفرٌ كَثِيرٌ, ثُمَّ إِنَّه صلى الله عليه و سلم لم يخرُجْ إِلَى النَّاسِ بَعدَ ذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ تُفْرَضَ هَذِهِ الصلاةُ عَلَى النَّاسِ.

وَمِنْ رِفق النبيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه أنَّه دخَل المسْجدَ، فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بينَ سَارِيَتَيْنِ. فَقَالَ: «مَا هَذَا الحَبْلُ؟»قَالُوا: هَذا حَبْلٌ لِزينَبَ، فَإِذَا فَترتْ تعلَّقتْ به، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ، فَلْيَقْعُدْ»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

رِفْقُ النّبِيّ صلى الله عليه و سلم بأُمّته(١)

كَانَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم رَفِيقًا بأمَّتِه, فَلَمْ يُخيَّر بَينَ أمريْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا, تَيْسِيرًا عَلَى الأُمَّةِ وَرَغبةً في رفعِ الحرجِ عَنْهَا, وَلِذَلِكَ قَالَ صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا, وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»[رواه مسلم].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ, وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»[رَواهُ أَبُوداودَ وصحَّحَه الألبانيُّ].

وَقَالَ صلى الله عليه و سلم: «مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا نُزِّعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانه»[رَواهُ مسْلِم].

وَقَدْ وَصفَ اللهُ تَعَالَى نَبيَّه صلى الله عليه و سلم بالرأفَةِ وَالرَّحمةِ فَقَالَ: لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ[التَّوبة: ١٢٨].

وَمِنْ رِفقِه صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه أَنَّ رَجلاً جَاء إِلى النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم فَقَالَ: هَلَكْتُ يَا رَسولَ اللهِ!

قَالَ: «وَمَا أَهْلَكَكَ؟».

قَالَ: وقعْتُ علَى امْرأتِي فِي رَمضانَ.

قَالَ: «هَلْ تَجِدُ مَا تَعْتِقُ رَقَبةً».

قَالَ: لَا.

قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟».

قَالَ: لَا.

قَالَ: «فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا».

قَالَ: لَا.

قَالَ: ثُمَّ جَلَسَ فَأُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بِعَرَقٍ([٢٧])فِيه تمرٌ، فقال: «تَصَدَّقْ بِهَذَا».

قَالَ الرَّجل: أَأَفْقَرُ مِنَّا؟ فَما بين لابَتَيْها أهلُ بيتٍ أحوجُ إِلَيْهِ مِنَّا. فضحِكَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم حَتَّى بدتْ أنيابُه, ثُمَّ قَالَ: «اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»[متفقٌ عليْه].

فانْظُر إِلَى رِفق النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم بِهذَا الرَّجُلِ المخْطِئ الَّذِي وَقَعَ عَلَى أهلِهِ فِي نَهارِ رَمضانَ, فَإِنَّ النبيَّ صلى الله عليه و سلم مَا زالَ يُرفقُ بِه ويتدرّجُ مَعه من العُقوبةِ الأشدِّ إِلى العقوبةِ الأخفِّ، حَتَّى وصلَ به الحالُ إِلَى أَنْ أعطاهُ مَا يُكَفِّرُ بِهِ عَنْ خَطِئِه, بَلْ إِنَّه سمَحَ لَهُ بأنْ يأخُذَ هَذه العطيَّةَ ويُطعِمَها أهلَه نَظرًا لحاجَتِه وفقْرِه، فَمَا أعْظَمَ هَذَا الرِّفْقَ النبويَّ، وَمَا أجملَ هَذِهِ الرأفةَ المحمَّديةَ.

وَهَذَا مُعاوِيةُ بْنُ الحَكَمِ السُّلَمِيُّ رضي الله عنه يقُول: بَينما أَنَا أُصَلِّي مَع رسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم، إِذْ عَطسَ رَجلٌ مِنَ القوْمِ, فَقلْتُ: يرْحَمُكَ اللهُ. فَرَماني القوْمُ بأبْصارِهِمْ, فقلْتُ: واثُكْلَ أُمِّياه! مَا شأْنُكم تَنظُرُونَ إِليَّ؟ فجَعلُوا يضْرِبُون بأيدِيهِمْ عَلَى أفْخاذِهِمْ، فَلَمَّا رأيتُهم يُصَمِّتونَني, لَكِنِّي سَكتُّ، فَلَمَّا صَلى النبيُّ صلى الله عليه و سلم، فَبِأبي هُو وأمِّي، مَا رأيتُ مُعلِّمًا قبْلَه ولا بعْدَه أَحسنَ تَعْلِيمًا مِنْه، فَوَاللهِ مَا كَهرني([٢٨])، وَلَا ضَرَبَني, وَلَا شَتمنِي, قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[رَوَاهُ مُسْلِم].

قَال النوويُّ: «فِيهِ مَا كانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم مِنْ عَظِيمِ الخُلُقِ، الَّذِي شهِدَ

٢٧ العَرَقُ: الزنبيل أو القفة.
٢٨ كهرني: نهرني.

اللهُ تَعَالى لَهُ بِه، وَرِفْقِه بالجاهِل، ورأفَتِه وشفقَتِه عَلَيْه، وَفِيه التخلُّقُ بخُلُقِه صلى الله عليه و سلم فِي الرِّفْقِ بالجَاهِل، وحُسْنِ تَعلِيمِه, واللُّطْفِ بِهِ، وَتقْرِيبِ الصَّوابِ إِلَى فَهْمِه».

وَمِنْ رِفْق النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه أَنَّه نَهَى عَنِ الوِصَالِ فِي الصَّوْمِ خَشْيَةَ أَنْ يُفْرضَ عَلَى النَّاسِ.

وَمِنْ رِفْق النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه, أَنَّه صلَّى قِيامَ رَمضانَ فِي المسْجدِ ثَلاثَ لَيالٍ أَوْ أكثرَ، حَتَّى اجْتَمع خَلْفَه نَفرٌ كَثِيرٌ, ثُمَّ إِنَّه صلى الله عليه و سلم لم يخرُجْ إِلَى النَّاسِ بَعدَ ذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ تُفْرَضَ هَذِهِ الصلاةُ عَلَى النَّاسِ.

وَمِنْ رِفق النبيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه أنَّه دخَل المسْجدَ، فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بينَ سَارِيَتَيْنِ. فَقَالَ: «مَا هَذَا الحَبْلُ؟»قَالُوا: هَذا حَبْلٌ لِزينَبَ، فَإِذَا فَترتْ تعلَّقتْ به، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ، فَلْيَقْعُدْ»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

رِفْقُ النّبِيّ صلى الله عليه و سلم بأُمّتِه (٢)

لَا زَال الحديثُ مَوْصولاً عَنْ رِفق النبيِّ صلى الله عليه و سلم بأمَّتِه.

عَنْ أَنس بْنِ مَالكٍ رضي الله عنه، عَنِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم قَالَ: بَينَما نَحْنُ فِي المسْجِد مع رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم إِذْ جَاء أعرابيٌّ فَقَام يبُولُ في المسْجِد، فَقَال أصحابُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: مَهْ مَهْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم «دَعُوهُ لَا تُزْرِمُوهُ([٢٩])»فَتركُوه حَتَّى بال.

ثُمَّ إِنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هذهِ المسَاجِدَ لَا تصلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ وَالْقَذَرِ، إِنَّما هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ».

قَالَ: فأمرَ رَجُلاً مِنَ القَوْمِ, فَجَاءَ بِدلوٍ مِنْ مَاءٍ فشنَّه عَليه. [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وَمِنْ صُوَرِ ذَلِكَ الرفقِ المحمَّدِيِّ أَنَّ فتًى شَابًّا أَتَى النبيَّ صلى الله عليه و سلم فَقَالَ: يَا رَسولَ اللهِ! ائذَنْ لِي بالزِّنَا!!

فَأَقْبلَ عَلَيْهِ القومُ فَزَجَرُوهُ، وَقالُوا: مَهْ مَهْ فَقَالَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: «ادْنُهْ»فَدَنَا مِنْهُ قريبًا.

قَال: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ»؟

قَال: لَا واللهِ, جَعلَنِي اللهُ فِداءَك.

قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ, أَفَتُحِبُّه لابْنَتِكَ؟».

٢٩ لا تزرموه: أي لا تجعلوه يقطع بوله لئلا يتضرر.

قَالَ: لَا واللهِ يَا رسولَ اللهِ, جَعلنِي اللهُ فِدَاءَك.

قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ, أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟».

قَالَ: لَا واللهِ, جَعلنِي اللهُ فِداءَك.

قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ, أَفَتُحِبُّه لِعَمَّتِكَ؟».

قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلنِي اللهُ فِداءَكَ.

قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ, أَفَتُحِبُّه لِخالَتِكَ؟».

قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلنِي اللهُ فِداءَكَ.

قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ»، ثُمَّ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَه، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلى شَيْءٍ. [رَواه أَحْمد].

بِهذَا الأسْلُوب الرَّفيق اسْتطاعَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم أَنْ يَدْخُل إِلَى قلْبِ هَذَا الشَّابِّ ويجعلَه يسْتقْبِحُ مَا طَلَبَهُ مِنَ الْإِذْنِ بِالزِّنَا، وَكَانَ ذَلِكَ سَببًا في صَلاحِ هَذا الشابِّ واستِقَامَتِه وعفَّتِه.

وَمِنْ رِفْقِ النبيِّ صلى الله عليه و سلم بأمتِه مَا رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاس رَضِي اللهُ عنهما قَالَ: بيْنَما النبيُّ صلى الله عليه و سلم يخطُبُ، إِذَا هُو برجُلٍ قائم، فَسأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يقومَ فِي الشمْسِ وَلَا يقعدَ، وَلَا يستظلَّ ولا يتكلمَ, وَيصُومَ, فقالَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم: «مُرُوه فَلْيَتَكَلَّمْ, وَلْيَسْتَظِلَّ, وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»[رواهُ البخَارِيُّ].

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَواه عَبدُاللهِ بْنُ عمرِو بْن العاصِ رَضي اللهُ عنهما قَال: أُخْبِر النبيُّ صلى الله

عليه و سلم أَنِّي أقولُ: واللهِ لَأصومَنَّ النَّهارَ، ولَأقومنَّ الليلَ مَا عِشْتُ. فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه و سلم: «أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟ «فقلْتُ له: قد قلتُه بِأَبِي أنتَ وَأُمِّي يَا رسولَ اللهِ. قَال: «فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ, وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ, فَإِنَّ الحسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا, وَذَلِك مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ».

وَفِي رواية:»أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟»قُلتُ: بَلَى يَا رسولَ اللهِ! قَالَ: «فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ, فَإِنَّ لجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا, وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا, وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَةَ أَمْثَالِهَا, فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ»قَالَ عبدُ الله: فشددْتُ، فشُدِّد عَلَيَّ. قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ: «صُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللهِ دَاودَ، لَا تَزِدْ عَلَيْهِ». قُلتُ: وَمَا كَانَ صِيامُ دَاودَ؟ قال: «نِصْفَ الدَّهْرِ»فكانَ عَبدُ اللهِ يَقولُ بَعد ما كَبُرَ: ليتَني قبِلتُ رخصةَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم. [متفقٌ عليهِ].

غَزْوةُ الأحْزَابِ

وَفِي شَوَّال مِنَ السَّنةِ الخامِسَةِ عَلَى أَصَحِّ القَوْلَيْنِ وَقَعَتْ غَزْوةُ الأحْزابِ المعرُوفةُ باسْم «غَزْوَةِ الخنْدَقِ».
وَكانَ سببُ هذهِ الْغَزوةِ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم لمّا أجْلَى يهودَ بَني النَّضيرَ في السنةِ الرَّابعةِ عَنِ المدينَةِ لمحاولَتِهِمْ قَتْلَ النبيِّ صلى الله عليه و سلم، خَرَجَ نَفَرٌ مِنْ أشْرَافِهم إِلَى مَكَّة، وأَخَذُوا يُحرِّضُونَ قُرَيْشًا عَلَى غَزْوِ رَسُولِ الله صلى الله عليه و سلم وَيُؤلِّبُونَهُمْ عَلَيْهِ، وَوَعدُوهمْ بِنصْرتِهم عَلَى رَسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم، فَأجَابَتْهم قُريشٌ, وَاجْتمعُوا مَعهُمْ عَلَى قِتاله، ثُمَّ خَرجُوا فَأَتَوْا غَطَفَانَ وَبَنِي سُلَيْم فدعَوْهم فاسْتَجابُوا لهمْ، ثُمَّ طَافُوا عَلَى قَبَائِلِ العَرَبِ يَدْعُونَهم إِلى قِتالِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم.

فخرَجَتْ قُريشٌ فِي أربعةِ آلافِ مُقاتِلٍ, بقيَادةِ أَبي سُفيانَ, وَقَادُوا مَعهُمْ ثَلاثَمائةِ فَرسٍ وَأَلفًا وَخمسَمائةِ بَعيرٍ, وَوَافتْهم بَنُو سُلَيْمٍ بمرِّ الظَّهْرانِ وَهُمْ سبْعُمائةٍ, وَخرجَتْ معهم بَنو أسدٍ، وَخرجَتْ فزارَةُ وَهُم أَلفٌ، وَخرجتْ أَشْجَعُ وَهُم أَرَبُعمائةٍ, وخرَجَتْ بَنُو مُرَّةَ وَهُمْ أربعُمائةٍ أَيْضًا, وَكَانَ جَميعُ مَنْ وَافى الخنْدقَ مِن القبائِلِ عشرةَ آلافٍ وَهُمُ الأحْزابُ.

فَلَمَّا بلَغَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم وُصولُهم مِن مكَّةَ نَدَبَ النَّاسَ، فَأَشَارَ سَلْمَانُ الفَارسيُّ بحفْرِ خَندقٍ يَحُولُ بَينَ العدوِّ وبينَ المدينةِ, فَأمرَ بِهِ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم, فَبادَر المسْلِمونَ إِلَى حَفْرِه، وَاشْتركَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِي حَفْرِه بنفْسِهِ، وَكانَ حَفْرُ الخنْدقِ أَمَامَ جَبَلِ سَلْعٍ, حَيثُ جَعل المسلِمُونَ الجبلَ خَلْفَ ظُهورِهِمْ, والخنْدَقَ بينهمْ وبيْنَ الكُفَّارِ.
وَفَرَغَ المسلِمونَ مِنْ حَفْرِ الخندَقِ فِي سِتَّةِ أيام، فَتَحصَّنَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المسْلِمينَ وَكَانُوا ثَلاثَةَ آلافٍ بالجبَلِ مِنْ خَلْفِه، وَبالخَنْدَقِ أَمَامَهُمْ.
وَأَمَرَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بِالنِّساءِ وَالذَّرَارِي, فَجُعِلُوا فِي آطامِ المدِينَةِ.

وَانطلَقَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطبَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ, وَكَانَ بينَهُمْ وَبَينَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم عهدٌ, فَلَا زالَ الخبِيثُ بِهِمْ، حَتَّى نَقَضُوا العَهْدَ مَع رَسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَدَخلُوا مَعَ المشْرِكِينَ فِي حَربِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم. وَاشتدَّ البَلاءُ بالمسْلِمينَ وَنجمَ النِّفاقُ,

وَاسْتَأْذَنَ بَعضُ بَنِي حَارِثَةَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِي العَوْدةِ إِلَى المدينةِ وَقَالُوا: وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا [الأحزاب: ٣١], وَهمَّ بَنُو سَلمةَ بالفشلِ, ثُمَّ ثبَّتَ اللهُ الطائفتَيْنِ.

عَنِ البَراءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: لمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم بحفْرِ الخَنْدَقِ عَرَضَتْ لَنا فِي بَعْضِ الخَنْدَقِ صَخرَةٌ عَظيمةٌ شَدِيدةٌ، لَا تأْخُذُ فِيها المعَاوِلُ, فَشَكَوْنَا ذَلِكَ إِلَى النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم، فَجَاءَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم، فَلَمَّا رَآها أَلْقَى ثوبَهُ، وَأَخَذَ المِعْوَلَ وَقَالَ: «بِسْمِ اللهِ»، ثُمَّ ضَرَبَ ضَرْبَةً, فَكَسَر ثُلُثَها وَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّام، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ السَّاعَةَ»، ثُمَّ ضربَ الثانيةَ, فَقطعَ ثُلُثَها الآخرَ وَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسٍ, وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ القَصْرَ الْأَبْيَضَ مِنَ المدَائِنِ»، ثُمَّ ضربَ الثَّالثةَ وقالَ: «بِسْمِ اللهِ»فَقطَعَ بقيَّةَ الحجَرِ وَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ, وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذِهِ السَّاعةَ».

وَأَقَامَ المشْرِكُونَ مُحاصِرِينَ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم شَهْرًا وَلم يكُنْ بينَهُمْ قِتَالٌ لأَجْلِ مَا حَال اللهُ بِهِ مِنَ الخَنْدقِ بينَهُمْ وَبَيْنَ المسْلِمِينَ.
قَالَ عُلماءُ السِّيَرِ:كَان اشتدَّ الخوْفُ يومَ الخَنْدقِ، وَفشِل النَّاسُ، وَخِيفَ عَلى الذَّرَاري وَالأَمْوالِ، وَطَلَبَ المشْرِكُونَ مَضِيقًا مِنَ الخَنْدَقِ يُقحِمونَ فِيهِ خيلَهُمْ، فَعبر مِنْهُمْ جَماعةٌ, مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ وُدٍّ، فَجَعَلَ يدْعُو إِلى البَرازِ وَهُو ابْنُ سَبْعِينَ سَنَةً، فَبارزَهُ عليٌّ فقتَلَهُ.

فَأَصْبحُوا, فَجمعُوا كَتِيبةً عَظِيمةً فِيها خَالِدُ بنُ الوَلِيد، وَقَاتَلُوا إِلَى اللَّيْلِ, وَلم يُصَلِّ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم يومَئِذٍ ظُهرًا ولا عَصْرًا، فَقَالَ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسْطَى، مَلَأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا»، ثُمَّ إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ صنع أمرًا مِنْ عِنْدِه خذَّل بِه العدوَّ، وَفَرَّقَ بِه جُموعَهمْ, وَذلكَ أَنْ نُعَيْمَ ابْنَ مسعودٍ كانَ قَدْ أسلمَ، وَلَمْ يَعْلَم المشْرِكُونَ وَلَا اليهودُ بِإِسْلَامِهِ, فَمَشَى بَينَ قُريشٍ وَقريْظَةَ فَخذَّل بينَهُمْ. ثُمَّ هبَّت ريحٌ شَدِيدةٌ, فَقَالَ أَبُوسُفيانَ لأَصْحَابِهِ: إِنَّكُمْ لَسْتُمْ بِدارِ مُقَامٍ، قَد هَلكَ الخفُّ والحَافِرُ، واختلفتْ قريظةُ, ولقِينا مِنَ الرِّيحِ ما ترونَ, فَارْتَحِلُوا, فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ. وَقُتِلَ مِنَ المشْرِكينَ يومئذٍ ثَلاثةٌ, وَمِنَ المسْلِمِينَ سِتَّةٌ([٣٠]).

٣٠ انظر «الوفا بأحوال المصطفى» ص(٧١٣, ٧١٤)، وزاد المعاد (٢٦٩/٣ – ٢٧٥).

عَدْل النبيّ صلى الله عليه و سلم

جَاءَ الإسْلامُ بالعدْلِ المطْلق، كَمَا فِي قولِه تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ [المائدة: ٨].

وَمِنْ صُورِ عُمومِ عَدْلِ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم أَنَّ امرأةً شَرِيفَةً مِنْ بَنِي مخزُومٍ سَرقتْ، فَأهمَّ قُرَيْشًا شأنُ هَذِهِ المرأةِ، وأرادُوا أَن يتوسَّطوا عِند النبيِّ صلى الله عليه و سلم فِي دَرْءِ الحدِّ عَنها، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيها رسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم؟ قَالُوا: وَمَنْ يجترئُ عليهِ إِلَّا أُسامةُ بْنُ زيدٍ حِبُّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم, فأُتِي بِها رَسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم فَكَلَّمَهُ فِيها أُسامةُ بْنُ زَيْدٍ، فَتلوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم وَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟»فَقَالَ لَه أُسَامَةُ: استَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ!

فَلَمَّا كَانَ العشيُّ قَامَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم فاخْتطبَ، فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِما هُوَ أَهلُه، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

هَذِهِ هِي العَدالةُ النبويَّةُ الَّتِي لَا تفرِّقُ بَيْنَ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ، أَوْ بَيْنَ غنيٍّ وفقيرٍ، أَوْ بينَ حَاكِمٍ ومحكُومٍ، فالكلُّ فِي ميزَانِ الحقِّ والعَدْلِ سَواءٌ.

وَمِنْ صُورِ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ النُّعمانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: أَعْطَانِي أَبي عَطِيةً، فَقَالَتْ أمُّه عُمَرةُ بِنْتُ رَواحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى يشهَدَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم، فَأَتَى رَسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم فَقَالَ: إِنِّي أَعطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمرةَ بِنْتَ رَوَاحَةَ عَطِيةً, فَأمرَتْنِي أَن أُشهدَكَ يَا رسُولَ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟»قَالَ: لَا. قَالَ: «فاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ»فَرَجَعَ بَشِيرٌ, فردَّ عطيَّتَهُ. [متفقٌ عليْهِ].

وَفِي رِوايةٍ قَالَ:»أَلَكَ بَنُونَ سِوَاهُ؟»قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَكُلُّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ هَذَا؟»قَالَ: لَا. قَالَ:

«فَلَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ»[مُتفقٌ عليْهِ].

وَجَاء ذُو الخويْصَرةِ التميميُّ والنبيُّ صلى الله عليه و سلم يقْسِمُ الأمْوالَ، فَقَالَ: يَا رَسولَ اللهِ اعْدِلْ! فَقَالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»[متفقٌ عَلَيْهِ]فَهُو صلى الله عليه و سلم الَّذي فضَّلَه اللهُ تَعَالى وَعَدَّله وائْتمَنَه عَلى وَحْيِه، فَكيفَ لَا يَعْدِلُ، وَكيفَ لَا يُقْسِطُ؟ وَهُوَ صلى الله عليه و سلم القَائِلُ: «إِنَّ المقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلّوا»[رَوَاهُ مُسْلِم].

وَأَمَّا العدْلُ بينَ الزَّوْجَاتِ فَقَدْ كَانَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم يَقُومُ به حَقَّ القِيام، حَيْثُ كَان يقْسِمُ بينَهُنَّ مَا يقْدِرُ عَلَى قسْمَتِه مِنْ بَيْتٍ ونفَقَةٍ وَنحْوِهمَا بالقسْطِ التَّامِّ سَفَرًا وَحَضرًا، يَبيتُ عندَ كُلِّ وَاحِدَةٍ ليلةً، وينْفِقُ عَلَى كُلِّ واحدَةٍ مَا فِي يدِه بالسويَّةِ، وَبنى لكلِّ واحدةٍ حُجْرةً، وَإِذَا سَافَرَ أَقْرَع بينهُنَّ, وَخرجَ بالَّتِي تَخرُجُ لَها القُرْعَةُ, وَلَمْ يفرِّطْ فِي شيْءٍ مِن ذَلِكَ، حَتَّى فِي مَرضِ مَوْتِه، حَيثُ كَانَ يُدارُ به عَلَى نِسَائِه، كُلُّ وَاحدَةٍ فِي نوبَتِها، وَلمَّا شقَّ عليْهِ ذَلكَ، وعلِمْنَ أَنَّه يحبُّ أن يسْتقرَّ فِي بيتِ عائشةَ –رَضِي اللهُ عنهُنَّ كلِّهنَّ –أذِنَّ له في أن يُمرَّض في بيتِها، فمَكثَ فِيه حَتَّى أَتَاهُ اليَقِينُ، وَمَع ذَلِكَ العدْلِ الَّذِي كَانَ يَقُومُ به معهُنَّ كَانَ يعْتَذِر إِلَى اللهِ تَعَالَى وَيَقُولُ: «اللهُمَّ هَذَا قَسمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ([٣١])» [رواه أبوداود والترمذيُّ].

وَحَذَّر النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم مِنَ الميْلِ إِلى إِحْدَى الزَّوْجَاتِ عَلَى حِسَابِ الأُخْرَى, فَقَالَ عَليه الصلاةُ وَالسَّلامُ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ, فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا, جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ»[رواه مسلم].

٣١ أخلاق النبي في القرآن والسنة (١٢٧١/٣).

مَكَائِدُ اليَهودِ وَمواقِفُ النّبيّ صلى الله عليه و سلم منْهُمْ

ذَكَرْنَا أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم وَادَعَ مَنْ بالمدينَةِ مِن اليهودِ، وَعَقَدَ مَعَهُمْ مُعَاهَدة عَدم اعْتِداءٍ، إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَضُوا تِلْكَ المعَاهَدةِ سَرِيعًا، وَبَدءوا يُمَارِسُونَ مَا اشْتَهرُوا بِهِ من نَبْذِ المواثِيقِ، وَنَسْجِ المكَائدِ والمؤامَرَاتِ.

فَمِنْ مَكَائِدِ يَهودِ بَنِي قَيْنُقَاع، أَنَّهمْ استغلُّوا انْشِغالَ النبيِّ صلى الله عليه و سلم مَعَ المسلِمينَ فِي غزْوَةِ بدْرٍ، فَتحرَّشَ بعضُهمْ بامْرأةٍ مُسْلِمةٍ، وَكَشَفُوا عَنْ جَسدِهَا أَمَامَ النَّاسِ فِي السُّوقِ، فَصَرخَتِ المرْأَةُ، فَثَارَ رَجلٌ مِنَ المسْلِمِينَ وَقَتَلَ اليَهوديَّ، فَتجمَّع عَليهِ اليهودُ فَقتلُوه، وَعَادَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم مِنْ بَدْرٍ، وَاسْتدَعى اليهودَ لِيسْألهمُ عَمَّا وَقَعَ مِنْ بَلاءٍ وَشَرٍّ، فأَغْلَظُوا لَه في الكَلَامِ، بَلْ أَرسَلُوا ورقَةَ المعَاهَدةِ واستعدُّوا لِلقتَالِ, فَحاصَرهُمُ النبيُّ صلى الله عليه و سلم، فَلَمَّا رَأَوا أَنَّهم لَا قِبَل لهمْ بمحَارَبةِ المسْلِمينَ سَأَلُوا النبيَّ صلى الله عليه و سلم أن يُخَلِّي سَبيلَهُمْ عَلى أَنَّ له الأموالَ، وَلهم الذريةَ والنِّسَاءَ، فَقبِلَ مِنْهُمْ، وَطردَهُمْ مِن المدِينَةِ، وَأَخَذَ المسْلِمونَ مِن حِصنِهِمْ سِلاحًا وآلةً كَثيرةً.

أَمَّا يهودُ بَني النَّضِير, فَقَدْ نَقضُوا العَهْدَ وَحاوَلُوا قَتلَ النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم، فَفِي السَّنَةِ الرَّابعَةِ للهجْرَةِ، خَرَجَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم إلى بَنِي النَّضِير يستعِينُهم فِي دِيَّةٍ، فَإِذَا بِهِمْ يَجلِسُونَ خَلْفَ حَائِطٍ ويتآمَرُونَ عَلَى قتْلِه؛ بأنْ يقومَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشٍ بِإلقَاءِ الرَّحَى عَلَى النبيِّ صلى الله عليه و سلم.

فَأَتَى رَسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم الخبرُ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى المدِينَةِ.

ثُمَّ عاقَبهُمُ النبيُّ صلى الله عليه و سلم بِإجْلَائِهِمْ عَنِ المدِينةِ إِلَى خَيْبَر، فَخَرَجُوا وَقَدْ حَملُوا مَتَاعَهُمْ عَلَى سِتِّمائةِ بعيرٍ، فَهدَمُوا بُيوتَهم بِأَيدِيهِمْ، وَخَرَجُوا إِلَى خَيْبَر.

أَمَّا يَهودُ بَني قُرَيْظَةَ فَقَدْ تَقَدَّم أَنَّهُمْ نَقضُوا العَهْدَ، وتحالَفُوا مَعَ المشْرِكينَ والأَحْزَابِ عَلَى

قِتالِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم فِي الخَنْدَقِ، فَلَمَّا خَذَّلَ اللهُ الأحزابَ وفرَّقَ جمعَهمْ وانْصَرفُوا، خَرَجَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم فِي ثَلَاثَةِ آلافٍ لمعاقَبةِ بَني قريْظَةَ، فَحَاصَرهُمْ وَضيَّقَ عليْهِمْ، فَطَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم النُّزولَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه، فَحكم فِيهِمْ بأنْ تُقتَلَ الرِّجَالُ القَادِرونَ عَلَى القِتَالِ, وَتُسبَى النِّسَاءُ وَالذرِيَّةُ، وتُقسَّم أموالُهم, فَضُرِبتْ أَعْنَاقُ الرِّجالِ، واسْتُثْنِي بعضُهم مِنْ هَذَا الحكْمِ.

وَهَذا الحكْمُ هُو الَّذي اختارَهُ اليهودُ، لأنَّهمْ طَلبُوا أَنْ يَحكُمَ فِيهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعاذٍ ظنًّا مِنْهم أَنَّه سَوفَ يَمِيلُ إِليْهِمْ، لعلَاقَتِهم مَعَ الأَوْسِ. وَكذلِكَ فَقَدْ كَانَ اليهودُ يُعاقِبونَ أَسْراهُمْ بأكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّوْرَاةِ فِي سفرِ العَدَدِ، الْإِصْحَاحِ (١٣/٦-٥٣) مَا يَلِي:»وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلنِسَاءَ مَدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ, وَنَهبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَملَاكِهِمْ, وَأَحْرقُوا جَمِيعَ مُدْنِهِمْ بِمسَاكِنِهِمْ وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ. وَسَخَطَ مُوسى وَقَالَ: هَلْ أَبقَيْتُم كُلَّ أُنْثَى حيةٍ؟ فَالآنَ اقتلُعُوا كُلَّ ذكرٍ مِنَ الأَطْفَالِ، وَكُلَّ امرأَةٍ عَرفَتْ رَجُلاً بمضاجَعةِ ذكرٍ اقتلُوها لكنْ جميعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّساءِ اللَّواتِي لَمْ يعْرِفْنَ مُضاجَعة ذَكرٍ، أَبقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ»وَمعاذَ اللهِ أَنْ يحكُم مُوسَى عَليه السلامُ بهذِه الإِبَادَةِ الجماعِيَّةِ، وَلَكِنْ هَكذا حَرَّفُوا التوْرَاةَ وَكَانَ حكمُهمْ فِي أَسْراهُم([٣٢]).

٣٢ انظر: «رحمة للعالمين» ص(١٢٥, ١٢٦)، ولباب الخيار ص(٥٩, ٦٧, ٧٣).

تصميم واخراج موقع نصره رسول الله

نسخة مجانية تهدى ولا تباع

www.rasoulallah.net